

رسائل الفقهاء والزهاد ومواعظهم

إلى

الخلفاء الأمويين والعباسيين

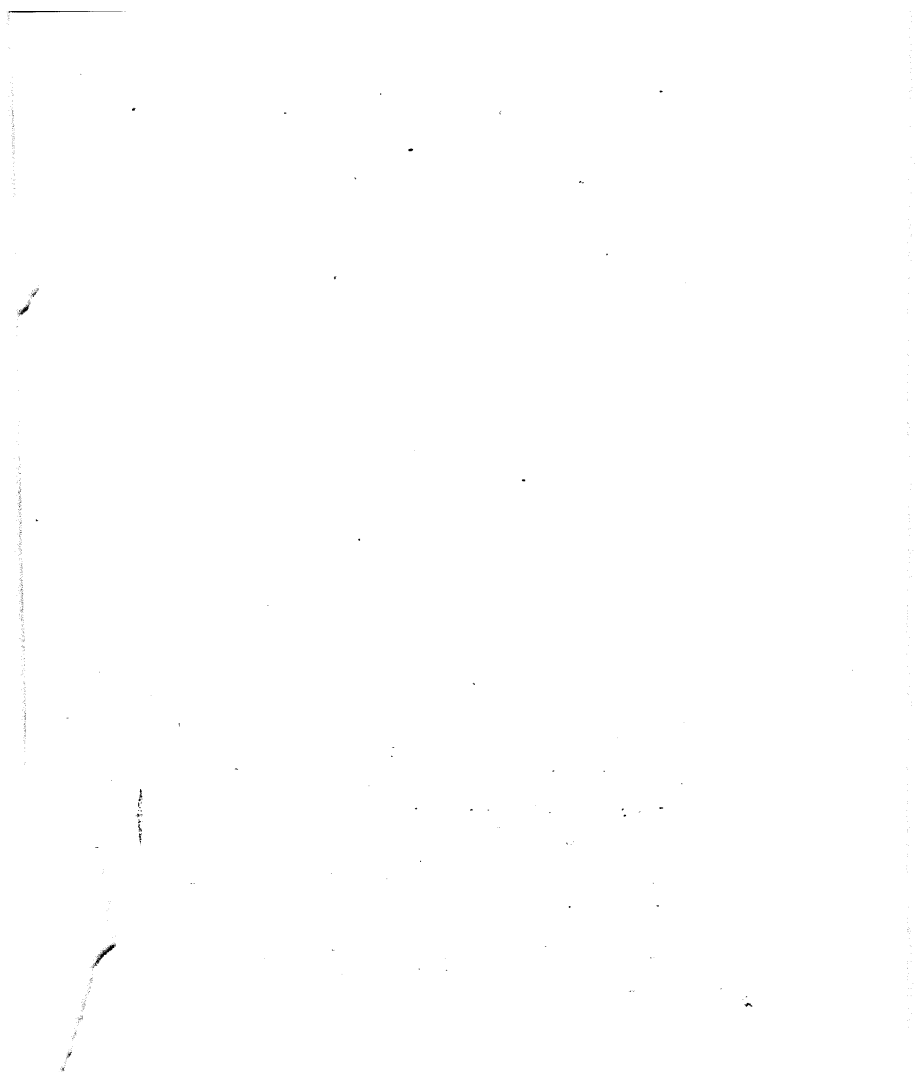
الدكتور / محمد محمد الغرياني

أستاذ الأدب والنقد المشارك

في جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

٢٠٠٦م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على الهادي إلى الصراط المستقيم ، سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ، النجوم الأعلام والأئمة الكرام ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... وبعد ..
فإن الدين النصيحة . كما أخبرنا بذلك المعصوم - صلى الله عليه وسلم - في قوله : " الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم " ؛ ولهذا عرف العلماء هذا الواجب فوقفوا من الأمة خير موقف ناصحين راشدين ، ومعلمين هادين ، ولم يتوان الفقهاء والزهاد منهم خاصة في نصيح الأمة - حكاما ومحكومين - فأرشدوا الضال ، ونصحوا المتخاذل ، ولم يخشوا في الله لومة لائم .

ووقف الفقهاء والزهاد من خلفاء بني أمية وبني العباس مواقف جادة ، فبينوا لهم طريق الحق ، وأنذروهم من مخالفة سنن الهدى والرشاد ، راجين بذلك وجه الله ورضاه .

وإنما اخترت الفقهاء والزهاد لسببين : -

أولهما -

البعد عن المهاترات السياسية والخلافات الحزبية في هذين العصرين ، لأنها درست من عدة جوانب .

وثانيهما -

إخلاص الفقهاء والزهاد في تلك النصائح ، والابتعاد عن عرض الدنيا من مال وجاه لدى السلطان .

وجاءت هذه النصائح في صورتين : فهي إما رسائل يبعث بها الفقهاء والزهاد للخلفاء ، يرسمون فيها الطريق السوي ، ويطلبون منهم اتباعه . وإما نصائح وعظية شفوية يبثها الفقهاء والزهاد بين يدي الخلفاء ، بعد طلب الخلفاء ذلك . وجاءت أقوال الفقهاء والزهاد - مكتوبة ومنطوقة - في تطع أدبية رائعة ؛ تحمل في طياتها أفكار علماء أفذاذ ، زهاد ورعين ، وتعبير عن عقول واعية مستنيرة . وقمت بتقسيم الدراسة إلى مقدمة وثلاثة فصول على النحو التالي :

مقدمة

الفصل الأول : مع العلماء والحكام .

المبحث الأول : في العلم والعلماء .
المبحث الثاني : مواقف الفقهاء والزهاد من الخلفاء .

الفصل الثاني : رسائل الفقهاء والزهاد للخلفاء الأمويين والعباسيين .

المبحث الأول : موضوعات رسائل الفقهاء والزهاد .
المبحث الثاني : الجوانب الفنية في رسائل الفقهاء والزهاد .

الفصل الثالث : المواعظ الشفهية .

المبحث الأول : موضوعات المواعظ .
المبحث الثاني : الجوانب الفنية في المواعظ .

ولعلني أكون قد كشفت اللثام عن بعض أدوار الفقهاء والزهاد في هذين العصرين ، وما قدموه في خدمة الدين والدنيا ؛ لتكون لبنة في هذا المجال ، فنر دراسات أخرى في عصور مختلفة حتى تكتمل الصورة المشرقة لفقهاءنا وعلمائنا ومواقفهم الجادة المثمرة في كل العصور .
والله أسأل أن يوفقنا إلى طريق الهدى والرشاد إنه نعم المولى ونعم النصير .

الفصل الأول
مع الطهارة والحكم

المبحث الأول فى العلم والعلماء

فضل العلم وأقسامه :

لا يشك عاقل فى فضل العلم وقيمته ، فيه يهتدى الإنسان لطريق الخير والرشاد ، وبه يستطيع إعمار الكون باستخدام خاماته وطاقاته . ويزداد قدر العلم بمقدار حاجة الإنسان إليه ، ولهذا قسم العلماء العلم أقساما ، وجعلوا أفضلها علوم الشريعة ، يقول أبو الوليد الباجى فى وصيته لأولاده ، بعد أن ذكر فضل العلم :

" وأفضل العلوم علم الشريعة ، وأفضل ذلك لمن وفق وأن يوجد قراءة القرآن ، ويحفظ حديث النبى - صلى الله عليه وسلم ويعرف صحيحه من سقيم ، ثم يقرأ أصول الفقه فيتفقه فى الكتاب والسنة ، ثم يقرأ كلام الفقهاء وما نقل من المسائل عن العلماء ، ويدرب فى طرق النظر وتصحيح الأدلة والحجج . فهذه الغاية القصوى والدرجة العليا " (١) .

واهتم المؤلفون العلماء بالعلم والعلماء فصنفوا فيهما كثيرا من الكتب ، وحثوا فيها على متابعة العلم والتزود منه ، وتلك الكتب أكثر من أن تحصى ، فمن هذه الكتب : " آداب الطلب الشوكاني ، وأخلاق العلماء للأجري ، والرسالة المفصلة لأحكام المتعلمين للقائسى ، وفضل علم السلف على الخلف لابن رجب ، والحث على طلب العلم للعسكري ، وآداب العلماء والمتعلمين للحسين بن منصور ، ورسائل الإصلاح لمحمد الخضر حسين ، وغيرها كثير " (٢) .

(١) وصية الشيخ الفقيه الحافظ أبى الوليد الباجى الأندلسى ص ٣٣ - تحقيق / عبد اللطيف بن محمد الجبلى - مكتبة أضواء السلف - الرياض - الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨ م .

(٢) حلية طالب العلم - بكر عبد الله أبوزيد ص ٨ - هامش (١) - دار ابن الجوزى - المملكة العربية السعودية - الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م .

واتفق العلماء على تقسيم النعم إلى علم نافع ، وعلم غير نافع ، وجعلوا لكل علم علامات يعرف بها صاحبه ، يقول ابن رجب في ذلك : " فاصل العلم (العلم) بالله الذي يوجب خشيته ومحبته ، والقرب منه والانس به والشوق إليه ، ثم يتلوه العلم بأحكام الله ، وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد . فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه نافعا ، وحصل له العلم النافع والقلب الخاشع والنفوس القانعة والدعاء المسموع " (١)

ويضع ابن رجب علامات يعرف بها صاحب هذا العلم ، فيقول : " ومن علامات العلم النافع أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا ، وأعظمها الرياسة والشهرة والمدح ومن علاماته أن صاحبه لا يدعى العلم ، ولا يفخر به على أحد ، ولا ينسب غيره إلى الجهل ، إلا من خالف السنة ، وأهلها ، فإنه يتكلم فيه غضبا لله لا غضبا لنفسه ، ولا قصدا لرفعها على أحد " (٢) .

ويعود ابن رجب فيصنف صاحب العلم غير النافع بصفات سنية ، تخالف الفطرة الصحيحة ، والنهج القويم ، فيقول :

" ومن فاته هذا العلم النافع وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي - صلى الله عليه وسلم - وصار علمه وبالا عليه ، فلم ينتفع به : لأنه لم يخشع قلبه لربه ، ولم تشبع نفسه من الدنيا بل ازداد حرصا عليها ولها طلبا ، ولم يسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر ربه ، وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه " (٣) .

ويشير ابن رجب إلى العاقبة الوخيمة التي تلحق صاحب هذا العلم غير النافع ، وما تكسبه من صفات الدمار والوبال عليه ، فيقول : " وعلامة هذا العلم الذي لا ينفع أن يكسب صاحبه الزهو والفخر والخيلاء ، وطلب العلو والرفعة في الدنيا ، والمنافسة فيها ، وطلب مباهات العلماء ، وممارسة السفهاء ، وصرف وجوه الناس إليه ... وربما ادعى بعض أصحاب هذه .

(١) فضل علم السلف - في الخلف - للحافظ أبي القرج زين الدين عبد الرحمن بن الشيخ أحمد بن رجب الحنبلي البغدادي ص ٣٦ - تحقيق / بشير محمد عيون - مكتبة دار البيان - دمشق بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م .
(٢) فضل علم السلف على الخلق ص ٣٩ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٦ ، ٣٧ .

العلوم معرفة الله و طلبه و الإعراض عما سواه و ليس غرضهم بذلك إلا طلب التقدم في قلوب الناس من الملوك و غيرهم ، و إحسان ظنهم بهم ، و كثره اتباعهم و التعظم بذلك على الناس ... و من علامات ذلك عدم قبول الحق و الانقياد إليه ، و التكبر على من يقول الحق ، خصوصا إن كان دونهم في أعين الناس " (١) .

و يتفق ابن عبد البر و ابن القيم على أن من العلم ما هو فرض عين . و منه ما هو فرض كفاية و يقسم ابن القيم العلم الذي هو فرض عين أربعة أقسام علم أصول الإيمان الخمسة و علم شرائع الإسلام و علم المحرمات الخمسة و علم أحكام المعاشرة و المعاملة التي تحصل بينه و بين الناس خصوصا و عموما أما العلم الذي يجب هو فرض كفاية فيرى ابن القيم أنه لا يعلم فيه ضابطا صحيحا لأن كل أحد يدخل في ذلك ما يظنه فرضا أي أن كل علم تتوقف معرفة العلوم التي هي فرض عين عليه فهو من باب ما لا يتم الواجب إلا به .
أما ابن عبد البر فيرى أن سائر العلم و طلبه و التفقه فيه و تعليم الناس و فتواهم به في مصالح دينهم فهو فرض على الكفاية (٢) .

و يعلق الدكتور رشاد سالم على ذلك التقسيم فيقول :

" و على ذلك فإن كل علم ديني أو دنيوي لا يستغني عنه جماعة المسلمين فإن تعلمه يكون فرض كفاية على الأمة الإسلامية لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " (٣) .

(١) فضل علم السلف على الخلق ص ٣٧ و ٣٨

(٢) انظر ذلك بالتفصيل في المدخل إلى الثقافة الإسلامية لمحمد رشاد سالم ص ١٢٥ إلى ١٢٧ - دار القلم الكويت - الطبعة السادسة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

(٣) المدخل إلى الثقافة الإسلامية ص ١٢٧

مكانة العلماء .

و كما اهتم العلماء و المؤلفون بالعلم و أقسامه اهتموا كذلك بالعلماء فعرفوا مكانتهم . و صنفوا الكتب الكثيرة في صفاتهم و أخلاقهم و أقدارهم ، و رسموا الصفات المستحبة فيهم ؛ كما أنهم قسموا العلماء أقساما حسب عدلهم وجورهم ، و اهابوا بالعلماء أن يلتزموا الجادة ، و أن لا يخشوا في الحق لومة لائم .

يقول أحد العلماء و هو أبو الربيع الكلاعي (ت ٦٣٤ هـ) :
"إن العلماء هم أبوانا الأقدمون و هداة المتقون بأنوارهم "

نسرى فنبصر و نستبصر ، و إلى غايتهم نجرى ، فطورا نصل و أطوارا نقصر ، فلهم دوننا قصب السبق ، و لهم علينا في كل الأحوال أعظم الحق ، إذا أصابوا اعتمدناه . و إذا أخطأوا استغفنا ، و إذا أفادوا استمددنا ، فجزاهم الله عنا أفضل الجزاء و وفقنا لتوفية حقوق الأئمة و العلماء " (١) .

و يخص الكلاعي علماء الدين بالرعاية و الثناء ، فيقول : " فعلماء الدين عامة عرفوا عند المسلمين بترفعهم - إلا فيما ندر - عن مديح السلاطين و التهالك في أطرانهم بخلاق حال غيرهم يقصد الأدباء و الكتاب " (٢) .

و عرف الحكام منزلة العلماء المسلمين الأقدمين فأنزلوهم المنزلة التي يستحقونها ، و لم يحتل العلماء هذه المنزلة لدى الحكام " إلا لما امتازوا به من علم و خلق و أمانة ، و زهد و ذلك لتمسكهم بالقيم التي كانوا يكتبونها و يعبرون عنها . فلقد كانت أقوالهم معبرة تماما عن أفعالهم ، كما كانت أفعالهم ترجمه حقيقية لكل ما كانوا يقولون " (٣) .

(١) الاكتفاء في مغازي رسول الله و الثلاثة الخلفاء للكلاعي ٢٦٩/١ نقلا عن : جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصرى المرابطين و الموحدين ١٠٩٠/٥٤٨٣م - ١٢٤٢/٥٦٤٠م د/محمد بن إبراهيم بن صالح الحداد - دار الخيل - دار أصداء المجتمع للنشر و التوزيع - السعودية - الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

(٢) ادب الفقهاء عن عبد الله كنون - نقلا عن جهود علماء الأندلس ص ١٩٣ هامش (١)

(٣) البحث العلمي عند المسلمين بين مرسرات الماضي و معوقات الحاضر - د/محمد عبد الحليم مرسى ص ١٠٢ دار عالم الكتب بالرياض - الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م

و أحس العلماء أنفسهم بمكانتهم فاعتزوا بها و لم يتهافتوا على الحكام و لقد جاء وقت على بلاد المسلمين توارى فيه العلماء من واجهة المجتمع و اختفوا من التأثير في حياة الأمة ، و ما كان ذلك إلا لأن الحكام والمسؤولين الكبار لم يعرفوا لهؤلاء العلماء أقدارهم ولم يستشيروهم في أمور أممتهم ومستقبلها ؛ فكان أن احترم هؤلاء أنفسهم وتواروا بعيدا إلا قلة منهم أثرت أن تركب الموجة سائرة مع من قالوا بتفضيل "أهل الثقة" على "أهل الخبرة" وكانت النتيجة وبالا على الجميع للأسف الشديد " (١) .

ولم يكن العلماء الحقيقيون يهابون في الحق لومة لائم ، فهم يبعثون بعلمهم ، ويطلبون من متعلميهم احترام العلم و أهله مهما بلغت درجة المتعلم . قال قائل : " كنت عند شريك فاتاه بعض أولاد المهدي فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث فلم يلتفت إليه وأقبل علينا ، ثم عاد الأمير لمثل ذلك وقال : أتستخف بأولاد الخلفاء ؟ قال شريك : " لا ، ولكن العلم أجل عند الله تعالى من أن أضعه ، فجئنا (الأمير) على ركبتيه ، قال شريك : هكذا يطلب العلم " (٢) .

وكما قسم العلماء العلوم أقساما وفضلوا بعضها على بعض ، قسموا كذلك العلماء وفضلوا البعض على الآخر ، يقول ابن رجب في ذلك : " وكان السلف يقولون : إن العلماء ثلاثة : عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله وليس بعالم بأمره ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، و أكملهم الأول وهو الذي يخشى الله ويعرف أحكامه " (٣) .

و ينعي ابن رجب على العلماء المنافقين الذين يتباهون بعلمهم . فيقول : " وفي الجملة ففي هذه الأزمان الفاسدة إما أن يرضى الإنسان لنفسه أن يكون عالما عند الله ، أو لا يرضى إلا بأن يكون عند أهل الزمان عالما . فإن رضى بالأول فليكتف بعلم الله فيه ... ومن لم يرض إلا بأن يكون عالما عند الناس دخل في قوله (صلى الله عليه وسلم) : من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يمارى به السفهاء أو يصرف إليه وجوه الناس ؛ فليتبوا مقعده من النار " (٤) .

(١) البحث العلمي عند المسلمين . د / محمد عبد الحليم مرسى ص ١٠٢ .
(٢) مالك بن أنس إمام دار الهجرة - عبد الحليم الجندى ص ٢٥٦ دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م .
(٣) فضل علم السلف على الخلف ص ٣٦
(٤) المصدر نفسه ص ٤٢ .

ويقسم الإمام الغزالي العلماء قسمين : علماء دين ، وعلماء دنيا ، يقول :
" وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول ، وملازم
صفو الدين ، ومواظب على سمت علماء السلف ، فكانوا إذا طلبوا هربوا
وأعرضوا " (١) .

ويصف الغزالي علماء الدنيا ، فيقول : " فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء و
إقبال الأنمة والولادة عليهم مع إعراضهم عنهم فاشترأوا بطلب العلم توصلا إلى
نيل العز ، ودرك الجاه من قبل الولاة ، وتعرفوا إليهم ، وطلبوا الولايات
والصلوات منهم ، فمنهم من أنجح ، والمنجح لم يخل من ذل القلب ومهانة
الابتذال فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة
بالإعراض عن السلاطين أدلة بالإقبال عليهم إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر
من علماء دين الله " (٢) .

لقد كان هذا التهافت في عصر الإمام الغزالي مما أحزنه وأقلقته ، فماذا لو رأى
وسمع بما حدث في العصور التالية ، والله المستعان .

ويعلق أحد العلماء على نص الإمام الغزالي ، فيقول :

" لقد صور الإمام الغزالي - رحمه الله - واقع العلماء بعد أن غدت الدنيا مطلبهم ،
وصار الدين الطريق الوحيد الموصل إلى أبواب الولاة ، كما أصبحت الرغبة في
كسب ودهم هي التي تدفع فئات ممن تزيوا بزي العلماء إلى طلب العلم " (٣) .

(١) إحياء علوم الدين ، للإمام أبي حامد محمد الغزالي ٤١ / ١ - تحقيق / إبي حفص سيد إبراهيم
صادق بن عمران - دار الحديث - القاهرة - ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م .
(٢) إحياء علوم الدين ٤١ / ١
(٣) أدب الاختلاف في الإسلام . د/ طه جابر فياض العلواني ص (٢) - نشر وتوزيع الدار العالمية
للكتاب الإسلامي - الرياض - الطبعة الرابعة ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م .

ولم يسكت العلماء المخلصون عن فضح هؤلاء المنتسبين للعلم ، المتكسبين بالتقرب به لذوى السلطان والجاه ؛ فوضعوا صفات للعالم الحقيقي ، منها الإخلاص والأمانة فى نشر علمه ، والعمل به ، وفى ذلك يقول الإمام محمد الخضر حسين : " فلاح الأمة فى صلاح أعمالها . وصلاح أعمالها فى صحة علومها ، وصحة علومها أن يكون رجالها أمناء فيما يروون أو يصفون ، فمن تحدث فى العلم بغير أمانة فقد مس العلم بقرحة ، ووضع فى سبيل فلاح الأمة حجر عثرة " (١) .

ولم تعدم الأمة الإسلامية هؤلاء الرجال المخلصين فى كل زمان ومكان ، فعن سفيان رحمه الله تعالى - أنه قال :

" كنت أوتيت فهم القرآن ، فلما قبلت الصرة سلبت " (٢) .

وعن عمر بن ذر أنه قال لوالده : " يا أبى ، مالك إذا وعظت الناس أخذهم البكاء ، وإذا وعظهم غيرك لا يبكون ؟

قال : يا بنى ، ليست النائحة التكلى مثل النائحة المستأجرة " (٣) .

ويضرب الشيخ / بكر أبو زيد المثل بالإخلاص فى العصر الحديث بالشيخ الشنقيطي - رحمه الله عليه - يقول : " وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي المتوفى فى (١٧ / ١٢ / ١٣٩٣ هـ) - رحمه الله تعالى متقللاً من الدنيا ، وقد شاهده لا يعرف فئات العملة الورقية ، وقد شافهني بقوله : جنت من البلاد - شنقيط - و معي كنز قل أن يوجد عند أحد ، وهو (القناعة) ولو أردت المناصب لعرفت الطريق إليها ولكنى لا أؤثر الدنيا على الآخرة ، ولا أبدل العلم لنيل المآرب الدنيوية " (٤) .

(١) رسائل الإصلاح - الشيخ : محمد الخضر حسين ص ٧٠ - المطبعة التعاونية بدمشق

١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م .

(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٩ - نقلا عن : حلية طالب العلم ص ١٠ .

(٣) العقد الفريد نقلا عن : حلية طالب العلم ص ١١ .

(٤) حلية طالب العلم ص ١٧ .

وفي مقابل هذا الصنف المخلص الأمين ، وجد صنف آخر : منافق في علمه ، غاش في نصحه ، لا يرجو بعمله سوى التزلف والتقرب من ذوي الجاه والسلطان ، يقول الشيخ / الخضرى حسين في هؤلاء : " اندس بين هؤلاء الأمناء أشخاص يتشابهون في الاستخفاف بصدق اللهجة ، ويختلفون في الاعراض التي دعته إلى هذا الاستخفاف ، فمنهم الجاهل الذي يحسب أن من طرق الاحسان إلى الدين وضع أحاديث للترغيب في بعض ما ندب إليه من أعمال صالحة . كما وضع نوح بن أبى مريم أحاديث في فضل سور القرآن ، وقال : " رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقّه أبى حنيفة ومغازى ابن إسحاق فوضعت هذه الأحاديث حسبة . ومنهم المغلوب على رشده ، يضع الحديث لنحو تأييد مذهب أو إصابة عرض زائل ، كان يصنع حديثاً يوافق هوى ذى سلطان ليزداد عنده حظوة " (١) .

وقد مثل الشيخ الخضرى للصنف الأخير بغياث بن إبراهيم ، الذى " رأى المهدي يلعب بالحمّام ، فتصرف في حديث (لاسبق إلا في نضل أو خف أو حافر) فزاد فيه (أو جناح وقد شاء الله تعالى أن ينتبه المهدي لهذه الخيانة ، فأنب غياثاً وترك الحمّام وأمر بذبحها " (٢) .

وكلما تعزّز العلماء كلما ارتفعت مكانتهم في الدنيا والآخرة ، قال وهب بن منبه لعطاء الخراساني : " كان العلماء قبلنا استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم فكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم ؛ فكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم ، فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم ؛ رغبة في دنياهم ، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم ؛ فإياك وأبواب السلاطين فإن عند أبوابهم فتناً كمبارك الإبل لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك مثله " (٣) .

(١) . (٢) رسائل الإصلاح ص ٧٠ ، ٧١ .
(٣) أخلاق العلماء ، لأبى بكر بن الحسين بن عبد الله الأجرى ص ٦٧ - دار الكتب العربى (ب . ت) .

لكل هذا حاول كثير من الفقهاء والزهاد الابتعاد عن أبواب السلاطين ، ورفض هدايتهم ، وآثروا العمل بأيديهم ، فمنهم الحسن بن عبد الله المرزباني النحوي . وكان قاضيا زاهدا ورعا ، لم يأخذ على الحكم أجرا ، إنما كان يأكل من كتب يمينه ، فكان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرتها عشرة دراهم تكون بقدر مؤنته ثم يخرج إلى مجلسه . وكان أبو الفتوح أسعد بن أبي الفضائل محمد بن خلف العجلي فقيها فاضلا موصوفا بالعلم والزهد ، مشهورا بالعبادة والنسك والقناعة لا يأكل إلا من كسب يده ، وكان يورق ويبيع ما يتقوت به (١) :

العلماء وتولية القضاء

اختلف العلماء في حكم قبول القضاء وتركه وفي أيهما أفضل ، فرأى جمهور العلماء أن الترك أفضل ، ورأى بعضهم أن القبول أفضل ، ولكل وجهته المرجحة لرأيه (٢) .

وعلى كل حال فقد حفظ لنا التاريخ كثيرا من أسماء الفقهاء الذين امتنعوا عن القضاء - مهما كانت العاقبة - وكان كثير من العلماء الاتقياء يأبون القضاء ويرفضونه " بتصميم يخشون أن يعترضهم في التنفيذ ما لاطاقة لهم بدفعه ، أو يخشون الزلل عند النظر في بعض النوازل وتعرف أحكامها ومنهم من يقبلها بعد التهديد البالغ ، مثل عيسى بن مسكين أحد الفقهاء بالقيروان فتمنع حتى أخذوا (الحاكم والحاشية) بمجامع ثيابه وقربوا السيوف من نحره ، فتقدم لها بعد أمر خطير " (٣) .

(١) انظر : وفيات الأعيان ٨ / ١٤٦ وما بعدها ، ١ / ١٨٨ - نقلا عن : المكتبات في الإسلام - نشأتها وتطورها ومصادرها - د / محمد ساهر حمادة ص ١٨٠ - مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م .
(٢) انظر ذلك بالتفصيل في : الفتوى والقضاء أمانة ونزاهة وتقوى - الشيخ خضر العبيدي ص ٥٥ وما بعدها - دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ط ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م .
(٣) رسائل الإصلاح ص ٨٦ .

ومنهم أبو علي الصديقي ، فقد قلد قضاء مرسية على كره منه سنة ٥٠٦ هـ ولكنه لم يلبث أن استعفى منه فلم يعف ، فتوارى عن الأنظار عدة شهور من آخر سنة ٥٠٧ هـ .

و أوائل السنة التالية حتى أعفى من ذلك المنصب . ولما طلب منه أن يلي القضاء في إشبيلية تمنع وأبى ، واجتهد في نشر العلم في أماكن كثيرة إلى أن قتل في معركة مع النصارى في ربيع الأول سنة ٥١٤ هـ (١) .

ومن هؤلاء ، " برهان الدين بن الخطيب بن جماعة أحد قضاة مصر ، عارضه محب الدين ناظر الجيش في قضية فقال : لا أرضى أن أكون تحت الحجر ، وصرف أتباعه ، وصرح بعزل نفسه وأغلق بابيه ؛ فبلغ أمره الملك الأشرف فأنزعج ومازال يسترضيه حتى قبل ، واشترط أشياء تلقاها منه بالإجابة وقد فعل ذلك لأنه من القضاة العادلين الذين يرمون بالمنصب في وجه الدولة إذا أخذ بعض رجالها يتدخل فيما يرفع إليه من خصومات " (٢) .

وكان للإمام سفيان الثوري موقف خاص من القضاء ، فكما تشدد في العزلة والابتعاد عن السلاطين ، تشدد كذلك في الابتعاد عن منصب القضاء ، بل دعا إلى مقاطعة القضاة وعدم السؤال عنهم والدعاء لهم خوفا من إعتاقهم على الظلم ، فقال لعثمان بن زائدة : " يا عثمان ، لا تجالس القاضي ، إذا قلت له : عافاك الله فهو يرى أنك رضيت عمله ، وإذا قلت له :

" جزاك الله خيرا ، فما بقي من الثناء ؟ " (٣) .

(١) انظر جهود علماء الأندلس ص ٧٦ ، ٨١ .

(٢) رسائل الإصلاح ص ٨٥ (بتصرف يسير) .

(٣) الورع ، أحمد بن حنبل ص ٥٧ - نقلا عن : الإمام سفيان بن سعيد الثوري د / عصام محمد الحاج علي ص ١٦٢ - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م .

و أنكر الثوري على شريك القاضي توليا قضاء الكوفة ، ولما لقيه بعدها قال له :
" يا أبا عبد الله ، بعد الإسلام والفقہ والخير . تلى القضاء وصرت قاضيا ؟ فقال
له شريك : يا أبا عبد الله ، لا بد للناس من قاض ، فقال سفيان : يا أبا عبد الله .
لا بد للناس من شرطي ... وبقي الثوري مقاطعا لشريك حتى آخر حياته . وعندما
التقى به لآخر مرة . قال له : أي عذر لك حيث كان الشرط يحفظونك اليوم ؟ قال
شريك : يا أبا عبد الله ، أكلمك ، فقال : ما كان الله ليراني وأنا أكلمك أو تتوب . ثم
وثب فلم يكلمه حتى مات . وكان إذا ذكره قال : أي رجل كان لو لم يفسدوه " (١) .

و يروى أن شريكا ندم في آخر عمره على توليه القضاء . فكانه " شعر بخطورة
توليه القضاء . وكانه ندم على ما قام به بعد أن أدرك أنه لوث دينه بهذا المنصب
ـ وقد عبر عن ذلك عندما ذهب إلى الصيرفي ليأخذ رزقه ، فضايقه في النقد فقال
له الصيرفي : إنك لم تبع به بزا ، فقال شريك : بلى ! والله بعث به أكبر من البز .
لقد بعث به ديني " (٢) .

ولئن صح هذا الخبر . ليكون دليلًا على الفساد الذي يلحق العلماء ـ في كثير
من الأحيان ـ بسبب توليهم المناصب لأنها لا تخلو من محاباة على حساب الدين .
وابتعاد عن جادة الصواب ! .

ولم يقبل الإمام سفيان الثوري هذا المنصب ، وإنما كان يفر منه في زمن بني
العباس . ولم يزل خلفاء بني العباس يلاحقونه . وهو يعتذر عن قبوله بحجج
وأعذار مختلفة ؛ كي لا يلوث زهده بهذا المنصب الشائن ، ولقد عرض عليه هذا
المنصب مرارا ، كانت إحداها " في زمن المهدي بن المنصور ، فجعل يختلق
الأعذار ليفر منه ، حدث عن ذلك القعقاع بن الحكم قال : كنت عند المهدي وأتى
بسفيان الثوري ، فلما دخل عليه سلم تسليم العامة ، ولم يسلم بالخلافة ، والربيع
الحاجب قائم على رأسه متكئا على سيفه يرقب أمره ،

(١) الإمام سفيان الثوري ص ١٦٢ ، ١٦٣ ـ نقلا عن مصادر مختلفة .
(٢) الإمام سفيان الثوري ص ١٦٣ ـ نقلا عن مروج الذهب ٣ / ٣١٠ .

فأقبل المهدي بوجهه طلق ، وقال له :

" يا سفيان . تفر منا ههنا . وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك ، فقد قدرنا عليك الآن . فما تخشى أن نحكم فيك بهوانا ، فقال سفيان : إن تحكم في يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل ، فقال الربيع : يا أمير المؤمنين ، الهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا ؟ إذن لي أن أضرب عنقه . فقال المهدي : اسكت ويلك ! وهل يريد هذا وامثاله إلا أن تقتلهم فنشقى بسعادتهم ؟ اكتبوا عهده على قضاء الكوفة . على أن لا يعترض عليه في حكم . فكتب عهده ودفع إليه . فأخذه وخرج ورمى به في دجلة وهرب . فطلب في كل بلد فلم يوجد " (١) .

ففي هذه القصة ثلاثة أمور : أولها - علو قدر العابد الزاهد سفيان الثوري . ونفوره من تلك المناصب الملوثة لزهده - خصوصا في زمن الظلم والفساد . وثانيها - شجاعته وجرأته في مجابهة الباطل ، والرد على الخليفة بالحق جهرا وصراحة دون مواربة . وثالثها - دور بطانة السوء في محاولة الإيقاع بالصالحين العاملين من خلال تزيين الباطل وتحسينه في أعين الحكام بدلا من تهدئة الموقف ومحاولة رضية السلطان عنهم . ولا حول ولا قوة إلا بالله ! .

وعلى أية حال . فلم يترك الفقهاء أمر الفتوى والقضاء دون قيود ؛ وإنما جعلوا للفتوى أدابا وحدودا شرعية . و أوجبوا على المفتي والقاضي الالتزام بها . منها : " ألا يميل إلى الأغنياء وذوى النفوذ ويقدم أجوبتهم على الفقراء . و ألا يجيب عن أسئلة في حق ذوى النفوذ ، وألا يفتي بقول مهجور لمنفعة يرجوها " (٢) .

وبناء على ذلك نقرر أن القضاء ليس شرا كله . وقد قال ابن فرحون في " تبصرة الحكام " : " و اعلم أن كل ما جاء من الأحاديث التي فيها تخويف ووعيد لمن تولى القضاء ، فإنما هي في حق قضاة الجور العلماء ، أو الجهال الذين يدخلون أنفسهم في المنصب بغير علم ، ففي هذين الصنفين جاء الوعيد " (٣) .

(١) البحر الرائق . لابن نجيم المصري الحنفى ٦ / ٢٩٢ - نقلا عن : الفتوى والقضاء أمانة ونزاهة وفتوى ص ٤٦ . ٤٧ .
(٢) الإمام سفيان الثوري ص ١٦٥ - نقلا عن : مروج الذهب ٣ / ٣٢٢ . وفيات الأعيان ٢ / ٣٩٠ .
(٣) الإمام الزهري عالم الحجاز والشام - محمد محمد حسن شراب ص ٣١٥ ، ٣١٦ - ديار القلم دمشق - الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م .

ويقصد بالوعيد الذى جاء فى الحديث الذى أخرجه أبو داود والترمذى عن أبى هريرة :

" من وفى القضا، أو جعل قاضيا فتد ذبح بغير سكين "

و أما فرار كثير من العلماء والزهاد من القضاء فمحمول على أنهم لم يغفلوا ذلك لأنه مسقط للعدالة وداعية إلى الحرج " وإنما فعلوا ذلك بداعى الورع والزهد ، وتحرزهم من أن يلقوا الله - عز وجل - وعليهم تبعات من أمور الناس " (٣) .

(٣) الإمام الزهرى عالم الحجاز والشام - محمد محمد حسن شراب ص ٣١٥ ، ٣١٦ - دار القلم دمشق - الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م .

المبحث الثاني

مواقف الفقهاء والزهاد من الخلفاء

الحاكم والمحكوم قطبان تدور عليهما الدولة ، إذ لا يتصور وجود أحدهما بدون الآخر ، فالحاكم برعيته والرعية بحاكمها ، كلاهما يصنع الآخر ويرتبط به ولكل قطب من هذين القطبين حقوق وواجبات تجاه القطب الثاني ، نظمها الإسلام أفضل نظام ووضع لها الأسس والقوانين التي لو التزم بهما كلاهما لصلحت الحياة ، واستقرت الأمور .

وقد عرف فقهاؤنا وزهادنا هذه الحقوق ، وعملوا بها ؛ لأنهم أكثر الناس فهما للحياة ، وأشدّهم وعيما يدور فيها ، فهم ينظرون للأمور بمقاييس صحيحة ، تحفظ للحياة دورتها ، وتحفظ للناس توازنهم بداخلها ، ولذا كان واجبه تقيلا تجاه مجتمعاتهم - حكاما ومحكومين - إذا إن واجبه تجاه المحكومين يتمثل في النصيحة لهم وإصدار الفتاوى السديدة التي تؤهلهم دينيا وتدخلهم في عداد المسلمين المتقين إذا هم ساروا على هذه الفتاوى والتزموا بها ، كما أن واجبه تجاه حكامهم يتمثل في إسداء النصيحة لهم ، وألا ييخلوا عليهم بالمشورة في كل أمر يتعلق بالدين والدنيا ، وألا يهابوهم أو ينافقوهم في الحق ، طمعا في ربح عاجل أو منصب زائل .

ووضع العلماء أسسا لصحية الحكام ونصحهم حتى يتمكن العالم من أداء هذا الدور الخطير . ونجد هذا مترددا في كتب التراث تحت كلمة " السلطان " والدخول على السلاطين " ، وعطايا السلطان " وغيرها ، ولهذه اللفظة مدلول في القديم غير مدلولها في الحديث فهي " في كتابات المتقدمين وفي جملتهم " ابن المقفع " لغاية عصر " هارون الرشيد " لا تدل على المعنى المعروف في أيامنا هذه . بل تدل فقط على السلطة وولادة أمور الناس وتدبير أمور الجمهور . ثم أطلقوها على كل إنسان يتولى شيئا من أعمال الحكومة . فهي عند المتقدمين بمعنى الوالي والحاكم وصاحب الأمر . وهنزون الرشيد هو أول من أعطى لقب السلطان لوزير جعفر " (١) .

(١) الأدب الكبير ، لابن المقفع ص ٢١ تعليق الأستاذ / أحمد زكي باشا ص ٢١ هامش رقم (١) - دار ابن حزم - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م .

وأكثر العلماء من الحديث حول " صحبة السلطان " وما يجب على العالم تجاه ذلك من الابتعاد عنها قدر المستطاع ؛ لما فيها من الأذى وعدم أمن الغدر ، يقول ابن المقفع :

" إن وجدت عن السلطان وصحبته غنى ، فأغن عنهما نفسك ، واعتزلهما جهلك . فإن من يأخذ عمل السلطان بحقه ، يحل بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة . ومن لا يأخذه بحقه ، يحتمل الفضيحة في الدنيا والوزر في الآخرة ... إنك لاتأمن إن صدقتهم غضبهم ، وإن كذبتهم سخطهم ، وإن سخطوا عليك نسيت سخط الله تعالى - وإن رضوا عنك تكلفت لرضاهم ما لا تطيق " (١) .

ويعود ابن المقفع فيوقع المصاحب للسلطان في حيرة في جميع أمورهِ وخصوصا السلطان الجائر - ، فيقول :

" إن ابتليت بصحبة وال لا يريد صلاح رعيته ، فاعلم أنك قد خيرت بين خلتين ليس منهما خيار : إما الميل مع الوالى على الرعية ، وهذا هلاك الدين . وإما الميل مع الرعية على الوالى . وهذا هلاك الدنيا . ولأحيلة لك إلا الموت أو الهرب " (٢) .

ويقترِب أحد علماء الهند من ابن المقفع في هذا الرأى ، غير أنه يزيد عليه التفصيل والتشبيه لحالات الحيرة ، يقول : " صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطار . وإنما تشبه بالجبل الوعر ، فيه السباع العادية ، والثمار الطيبة ؛ فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشد ؛ وليس يتكافأ خير السلطان وشره ؛ لأن خير السلطان لا يعدو مزيد الحال ، وشر السلطان يزيل الحال ويتلف النفس التى لها طلب المزيد ؛ ولا خير فى الشيء الذى سلامته مال وجاه . وفى نكبته الجائحة والتلف " (٣) .

(١) الأدب الكبير ص ٦٥ : ٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٣) كتاب الأمالى ، لأبى على القالى ٢ / ١٢١ - مراجعة لجنة إحياء التراث العربى فى دار الأفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م .

وينصح أبو الوليد الباجي ولديه بعدم صحبة السلطان - ما أمكن - لما فيها من شرور وآثام ، ولكنه يضع لهما الأساس الصحيح إذا ما قدر لهما صحبته ، يقول الباجي في وصيته :

" واجتنبنا صحبة السلطان ما استطعنا ، وتحريا البعد منه ما أمكننا ، فإن الدل مع البعد عنه أفضل من العزم مع القرب منه . فإن صاحب السلطان خانف لا يأمن ، و خانن لا يؤمن ، ومسيء إن أحسن يخاف منه ويخاف بسببه ، ويتهمه الناس من أجله . إن قرب فتن ، وإن أبعد أزن ، يحسدك الصديق على رضاه إذا رضى . ويتبرا منك ولدك والدك إذا سخط فإن امتحن أحدكما بصحبته ، أو دعتك إلى ذلك ضرورة فيقتل من المال والحال ، ولا يغترب عنده أحدا ، ولا يطالب عنده بشرا . ولا يعصى له في المعروف أمرا ، ولا يستزله إلى معصية الله تعالى . فإنه يطلنيه بمثلها ، ويصير عنده من أهلها . وإن حظى عنده بمثلها فإن نفسه تمقته في الباطن " (١) .

ويزداد عيب العلماء تجاه السلطان ، كلما كانوا قريبين منه ، وذوى حظوة عندهم . ولهذا استحب " أبو حاتم ، محمد بن حيان ، " لمن امتحن بصحبة السلطان أن يعلمه لزوم تقوى الله والعمل الصالح كأنه يتعلم منه ، و يؤديه كأنه يتأدب به ، ويتقى سخطاته ومن صحب السلطان لم يأمن التغير على نفسه ؛ لأن الانهيار إنما تكون عذبة مالم تنصب إلى البحور ، فإذا وقعت في البحور ملحت . على أن قعود العلماء على أبواب الملوك زيادة في نور علمهم ، وكثرة غشيانهم إياهم غشاوة على قلوبهم ، ومن صحب الملوك لم يأمن تغيرهم ومن زایلهم لم يأمن تفقدهم ، وإن قطع الأمور دونهم لم يأمن فيها مخالفتهم ، وإن عزم على شيء لم يجد بدا من موامرتهم ، وأسمح شيء بالملوك الحدة " (٢) .

واختلف الفقهاء والزهاد في أمر الدخول على السلطان ، فمنهم من دخل عليهم ليعظهم ويذكرهم بأمور الدين ، وأمور الرعية ، ومنهم من امتنع عن ذلك ، فقد وعظ أبو حازم الأعرج سليمان بن عبد الملك حتى بكى سليمان .

(١) وصية الشيخ الفقيه الحافظ أبي الوليد الباجي الأندلسي لولديه ص ٤٨ .

(٢) روضة العقلاء ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

فقال له بعض جلسائه :

أسرفت - ويحك - على أمير المؤمنين ، فقال له أبو حازم :

" اسكت فإن الله - عز و جل - أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه " (١) .

ووعظ عطاء بن يسار الوليد بن عبد الملك ، فقال له :

" قال عمر بن الخطاب : وددت أنى خرجت من هذا الأمر كفافا لاعلى ولالى . فقال : كذبت . فقلت : أو كذبت ! فما أقلت منه إلا بجريعة الذقن . أى : نجوت منه بأعجوبة " (٢) .

وامتنع الإمام أحمد بن حنبل عن زيارة السلطان ، لأنه كان يكره ذلك . " قال صالح بن أحمد : قدم محمد بن عبد الله بن طاهر ، فوجه إلى أبى : أحب أن تصير إلى ، وتعلمنى اليوم الذى تعزم عليه حتى لا يكون عندى أحد ، فوجه إليه :

أنا رجل لم أخالط السلطان ، وقد أعفانى أمير المؤمنين (المتوكل) مما أكره ، وهذا مما أكره قال ابن الجوزى : وإنما امتنع أحمد من زيارة ابن طاهر . لأنه كان سلطانا ، و إلا فقد كان يزور أهل الدين والعلم " (٣) .

وأما الإمام مالك ، فكان يرى غير ذلك ، حيث كان يدخل على السلاطين ، بل كانت صلة مالك بالولاة والخلفاء حماية للمدينة من ظلم الولاة وإهمال الخلفاء . ولذلك لم يكف عن التدخل فى أعمالهم ، قيل له : إنك تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويجورون ! قال : رحمك الله وأين التكلم بالحق ؟!

(١) جمهرة خطب العرب - أحمد زكى صفوت ٢ / ١٨ - المكتبة العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م
(٢) العقد الفرید ١ / ٨٤ - تحقيق : د / أحمد يسرى العزباوى - دار الإمام على للطباعة والنشر - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م
(٣) مناقب الإمام أحمد - ابن الجوزى ص ٥١١ - تحقيق عبد الله بن عبد المحسن الترقى - هجر للطباعة والنشر - القاهرة - الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨ م

وكان يحمل على نفسه وهو مريض أو ضعيف فيذهب إلى الأمراء في حين يدع الخروج إلى المسجد . ويقول لمن يسأله في ذلك : أما تركي الخروج إلى المسجد ساني ضعفت عن ذلك وأما إتياني الأمراء فيالحمل مني على نفسي فإنه ربما استشير بعض من لا يستشار " (١) .

وكانت له في هذا الأمر كلمات ماثورة ، منها قوله عن الولاية : " لولا أني آتيهم ما رايت للنبي - صلى الله عليه وسلم - في هذه المدينة سنة معمولاً بها . والرسول يقول : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائز . ومالك رضي الله عنه يقول : على كل مسلم جعل الله في صدره شيناً من العلم والفقه أن يدخل إلى كل سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر ، ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره : لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك ، فإذا كان فهو الفضل الذي لا بعده فضل " (٢) .

وأما الإمام أبو حنيفة ، فكان " في العصر ذاته يعلم أبا يوسف معاملة السلطان ، فيقول : وإذا رايت من سلطان ما لا يوافق العلم فأذكر ذلك مع طاعتك إياه فإن يده أقوى من يدك . ثم علمه موعظة السلطان في يسر ولين " (٣) .

وكان الإمام مالك لا يرى الخروج على السلطان : " سأله سائل عن محاربة الخارجين على السلطان . قال مالك : إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم . قال السائل : فإن لم يكونوا مثله ؟ فأجاب : دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما . وعمر بن عبد العزيز لا يتكرر . فمالك يفتي بالحياد أبداً : لأنه يأمل صلاح الحكام بالموعة الحسنة وليس تغيير النظم السياسية عمل الفقيه . وإنما عمله بيان حدود الله وحقوق المسلمين " (٤) .

(١) (٢) مالك بن أنس - عبد الحليم الجندى ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
(٣) المرجع نفسه ص ٢٤٧ .
(٤) مالك بن أنس - عبد الحليم الجندى ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

فضائل الوعظ

وللوعظ فضائل كثيرة ، من أهمها : حب النفس إلى مقوم ومحذر وذلك كما يقول ابن الجوزي :

" اعلم أن الطباع لما خلقت مائلة إلى حب الشهوات المردية ، والبطالة المودية . افتقرت إلى مقوم ، ومتقف ، ومحذر يرد ... ولهذا بعث الأنبياء بالترغيب والترهيب ، وأنزلت عليهم الكتب للتثقيف والتأديب . فما زالوا مبشرين ومنذرين ثم خلفهم العلماء وقد كان العلماء كلهم يذكرون بفتاويهم وعلمهم " (١) .

ويعود ابن الجوزي ، فيضع صفات للواعظ ، كي يصح وعظه ، يقول : " ينبغي للواعظ أن يكون حافظاً لحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عارفاً بصحيحه وسقيمه ، ومسنداً ومقطوعه ، ومعضله ، عالماً بالتواريخ وسير السلف . حافظاً لأخبار الزهاد ، فقيهاً في دين الله ، عالماً بالعربية واللغة ، فصيح اللسان . ومدار ذلك كله على تقوى الله - عز وجل - وأنه بقدر تقواه يقع كلامه في القلوب . وقال بعض السلف : إن الموعظة إذا خرجت من قلب الصادق وقعت في القلب . ثم يصح قصده ، فإنه إذا صح قصده صرف الله القلوب إليه ، ثم يخرج من قلبه الطمع في أموال الناس " (٢) .

ويشترط ابن الجوزي في الواعظ شروطاً تتصل بالشكل أيضاً ، يقول : وينبغي للواعظ أن يترك فضول العيش ويلبس متوسط الثياب ليقبلى به ولا يعمل الواعظ إلا من متقشف ، متزهّد ، متورع ، من وراء مدرعة صوف ، ونظافة جسم ، وتقليل قوت ، اشتغالا عن البدن بفضائل النفس كالطبيب الظاهر الحمية . فأما من خرج بطينا فآخر الثياب مداخل للسلطين ، فكيف تستجيب له القلوب ؟ إنما يسمع من هؤلاء على سبيل الفرحة كسماع الأسمار من السمار " (٣) .

(١) القصاص والمذكرين - للحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ص ١٩ - تحقيق : محمد السعيد نسيبوني - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .

(٢) القصاص والمذكرين ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤ .

الفقهاء و عطايا الخلفاء .

وكما اختلف الفقهاء والزهاد في الدخول على السلطان وصحبته ، اختلفوا كذلك في قبول عطيته ، فمنهم من أخذها ، ومنهم من ردها ، بل منهم من كان يردها ردا جميلا . ومنهم من كان يردها بإبداء الأسباب في صراحة وجراة .

فقد " سنل عثمان بن عفان - رضى الله عنه - عن جائزة السلطان فقال : لحم طرى زكى " (١) .

وممن قبل الهدية . الإمام مالك بن أنس " حين خل على هارون الرشيد فشكا اليه ديننا لزمه فأمر له بألف دينار عين . فلما وضع يديه للقيام ، قال : يا أمير المؤمنين ، وزوجت ابني محمدا فصار على فيه ألف دينار . قال : ولاينه ألف دينار " (٢) .

فالإمام مالك كان يبيع مع أخيه النضر البر ، " وكانت له من ذلك أربعمائة دينار يتجر بها فمئها كان قوام عيشه وهو كان مع هذا المورد يقبل هدايا الخلفاء ، ولا يعتريه شك في حل أخذها ، كما كان يشك أبو حنيفة معاصره ... لم يكن مالك من المتزهدين في أموال الخلفاء ، وإن كان يتعفف عن الأخذ ممن دونهم ولقد كان بعض الناس يستكثر قبوله الهدايا ، أو يستكثر بعض هذه الهدايا حتى إنه ليروى أن الرشيد أجازته بثلاثة آلاف دينار ، فقبل له : يا أبا عبد الله ثلاثة آلاف تأخذها من أمير المؤمنين ، فقال لو كان إمام عدل ، فأنصف أهل المروعة لم أربه بأسا " (٣) .

(١) العقد الفريد ١ / ٢٩٨ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٢٩٩ .

(٣) مالك (حياته وعصره آراؤه وفقهه) الإمام محمد أبو زهرة ص ٣٩ - دار الفكر العربي - الطبعة الثانية ١٩٥٢ .

ويبدو أن الإمام مالك لم يكن مستديماً لقبول هذه الهدايا ، وإنما كانت هناك أسباب لقبولها ، فكان يقبلها " على مضض ، ليحفظ مروءته ، ويدفع ، وما كانت توجب عليه مكانته الاجتماعية من إيواء لفقراء الطلاب وسد حاجة المحتاجين . فهو يقبل هدايا الخلفاء بهذه النية ، ويظهر أنه مع الغرض الحسن كان يرى فيها شبيهاً . ولذلك كان ينهى غيره عن قبول هدايا السلطان ، خشية ألا يكون له مثل نيته . ولقد سئل كثيراً عن هدايا السلطان ، فكان يقول لسانه : لا تأخذها . فيقول له : أنت تقبلها ، فيقول : أريد أن تبوء بأثمي وإثمك ؟ وأحياناً يقول : أحببت أن تبكتني بذنوبي " (١) .

ومن قبل هدايا الخلفاء أبو يوسف صاحب أبي حنيفة وغيره ، أما الأئمة فانقسموا في عطاء الخلفاء ثلاثة أقسام :

القسم الأول — تعفف عن مال السلطان والخلافة ، ورفض الأخذ ، وشدد في الرفض ومنهم أبو حنيفة والثوري . والإمام أحمد بن حنبل .

القسم الثاني — قبل العطاء : ليستعين به في حاجات المعوزين ، وليعيش عيشة كريمة . ومنهم مالك والحسن البصري .

القسم الثالث — قبل العمل للخلفاء ، وأخذ العطاء وتصدق به . ويمثلهم الإمام الشافعي . (٢) .

وعدد أحد الباحثين كثيراً من أسماء الصحابة والتابعين الذين دخلوا على الخلفاء ، وقبلوا عطاياهم ، ومنهم : عبد الله بن عمر ، والحسن بن علي وعبد الله بن عباس ، حيث دخلوا على معاوية ورجعوا يحملون عطايه وحصل هذا من كبار التابعين ، وبخاصة الفقهاء السبعة ، حيث كان هؤلاء يكونون مجلس شورى عمر بن عبد العزيز عندما كان أميراً على المدينة . ووفد عروة بن الزبير على عبد الملك ، وابنه الوليد ، ونال منهما الإكرام والعطاء " (٣) .

(١) مالك (حياته وعصره آراؤه وفقهه) الإمام محمد أبو زهرة ص ٣٩ — دار الفكر العربي — الطبعة الثانية ١٩٥٢ .

(٢) انظر ذلك بالتفصيل في : ابن حنبل — حياته وعصره وآراؤه وفقهه — الإمام محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي = القاهرة ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م .

(٣) الإمام الزهري ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

ونرى فى الجانب الآخر كثيرا من "فقهاء والزهاد الذين رفضوا هذه الهدايا ، ومن هؤلاء سفيان الثوري ، لما أراد الرشيد " أن يتزوج على زبيدة ، فقالت له : لا يحل لك ذلك ، فبعث إلى سفيان الثوري ، فقال له الرشيد : إن زبيدة تزعم أنه لا يحل لى أن أتزوج عليها . وقد قال الله تعالى : (فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) ثم سكت ، فقال سفيان : تتم الآية ، يريد أن يقرأ : (فان خفتن ألا تعدلوا فواحدة) وأنت لاتعدل ، فأمر لسفيان بعشرة آلاف درهم ، فأبى سفيان أن يقبلها " (١) .

ومنهم أبو حازم الأعرج ، فقد " خرج من عند سنيان بن عبد الملك بعد أن وعظه ، فبعث إليه بمال فردده ، وقال للرسول : قل له : والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك ، فكيف أرضاه لنفسى ؟ " (٢) .

واجب السلطان

لخص أبو حاتم واجب السلطان فقال : " الواجب على من ملك أمور المسلمين الرجوع إلى الله - جل وعلا - فى كل لحظة وطرفة ؛ لنلا يطغيه ما هو فيه من تسلطه ، بل يذكر عظمة الله وقدرته وسلطانه ، وأنه هو المنتقم فمن ظلم ، والمجازى لمن أحسن ، فليلزم فى إمرته السلوك الذى يؤديه إلى اكتساب الخير فى الدارين ، وليعتبر بمن كان قبله من أشكاله ؛ فإنه لا محالة مسنول عن شكر ما هو فيه ، كما لا محالة مسنول عن حسابه " (٣) .

(١) حلية الأولياء ٦ / ٣٧٨ - نقلا عن : هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا - د / شوقي أبو خليل ص ٣٧ - دار الفكر بدمشق - الطبعة الرابعة ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م .
(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤١٨ .
(٣) روضة العقلاء ص ٢٧٧ .

كما يجب عليه الاستعانة بالبطانة الصالحة من وزراء وعلماء ، يهدونه طرق الصواب ، ويهدنون من ثورته عند الغضب ويسكنون ريح الحدة والانتقام ، ومن احسن ما يستعين به السلطان على أسبابه " اتخاذ وزير عفيف ناصح ، فإن الوزير إذا غفل الأمير ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإن سولت له نفسه سينة صده ، وإن أراد طاعة نشطه ، فهو المحبب له إلى الناس ، والمستجلب له دعاءهم " (١) .

ويجب على السلطان قبول النصيحة والعمل بما فى النصيحة من خير وير . وإحسان للرعية ، فقد كان الخلفاء - رضى الله عنهم - يقبلونها . ويحثون عليها فقد قال " رجل لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : اتق الله . فأنكر ذلك بعض الحاضرين ، فقال عمر :

" دعه فليقلها لى . نعم ما قال . لاخير فيكم إذا لم تقولوها ، ولاخير فينا إذا لم نقبلها . إن العظيم الحق لا تضره كلمة الحق وإنه ليدرك أن عظمته إلى جوار عظمة الخالق كجناح بعوضة " (٢) .

وتتوقف درجة قبول النصيحة على شخصية السلطان وتكوينه واستعداد لمثل هذه الامور ، فها هو ذا عبد الملك بن مروان " أول من نهى الناس عن الكلام بحضرة الخلفاء ، وكان الناس قبله يراجعون الخليفة فيما يقول ، ويعترضون عليه فيما يفعل ، وأكثروا من ذلك على عثمان ، ثم على معاوية فلما صار الأمر إلى عبد الملك ، أخذ الناس مأخذ ملوك الأعاجم فنهاهم عن الكلام بحضرته ، والمنازعة فى مجلسه ، وتوعدهم على مخالفة رسمه فى ذلك " (٣) .

ونرى صاحب بن عباد ، يهتم بالهينة والشكل ، فقد " حضر مجلسه بشيراز العالم اللغوى جنادة بن محمد ، وهو أشعث الزى ذو أظمار رثة و سخة ، فجلس قريبا من صاحب - وكان مشغولا - فلما بصر به قطب ، وقال : قم يا كلب من ها هنا ! فقال له جنادة : الكلب هو الذى لا يعرف للكلب ثلاثمائة اسم ، فقد عند ذلك صاحب يده ، وقال :

(١) - مصدر نفسه ص ٢٧٥ .

(٢) - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام - عبد الحليم الجندى ص ٧٠ - المكتبة النموذجية بالقاهرة ١٩٧٠ م .

(٣) - الأول ، لأبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ص ١٧١ - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م .

قم الى هاهنا ، فما يجب أن يكون مكانك حيث جلست ورفعه إلى جانبه " (١) .

وشخصية كشخصية الحجاج بن يوسف الثقفي تنبىء عن كبر وتجبر ، وازدراء العلماء . واهـ متعلاء على قبول النصيح والموعظة ، وهو الذى وصف نفسه لعبد الملك قائلا :

" أنا حديد حسود حقود لجوج ذو قسوة ، فبلغ هذا الكلام خالد بن صفوان ، فقال : انتحل الشر بحدافيره . والمروق من جميع الخير بزوبره (بأجمعه) ، ولقد تأنق فى ذم نفسه ، وتجود فى الدلالة على لوم طبعه ، وفى إقامة البرهان على افراط كفره . والخروج من كنف ربه ، وشدة المشاكلة لشيطانه " (٢) .

وكذلك كان رأى الفقهاء فى الحجاج ، فقد " ذكر يوما للحسن البصرى فقال : أتانا أعيمش أخيفش ، له جميمة يرجلها ، وأخرج إلينا بنانا قصارا ، والله ما عرق فيها عنان فى سبيل الله ، فقال : بايعونى ، فبايعناه . ثم رقى هذه الأعواد ينظر إلينا بالتصغير ، وننظر إليه بالتعظيم : يأمركنا بالمعروف ويحجبتنه ، وينهاكنا عن المنكر ويرتكبه " (٣) .

وكان يقول فيه أيضا : " مازال النفاق مقموعا حتى عمم هذا عمامة : وقد سيفا " (٤) .

ولهذا سجد مواقف الفقهاء منه تتفق وتكوين هذه الشخصية المحيرة . وتلقانا شخصية محبة للعلم والفقه والعدل فيتجه إليها الفقهاء ، ويلتف حولها الزهاد بالنصح والإرشاد بناء على طلب من هذا الورع التقى ، ذلكم الخليفة العادل ، عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - الذى أجمع العلماء على أنه خامس الراشدين ، فقد كان " أريه فى الفقهاء والعلماء ، وأهل التقوى ،

(١) بغية الوعاة ١ / ٤٨٩ .
(٢) الأمالى ، لأبى على القالى ٢ / ١١١ .
(٣) (٤) أمالى المرتضى ١ / ١٥٥ .

والنفوس الكبيرة ، والهمم العالية ، فهذه الفئة من الأئمة فيها خلق وكف عن الذميمة ، وفيها جوانب إصلاح وإعمار ، ومجالات صدق وإخلاص ؛ فافسح لهم في مجالسه مكانا بارزا ، وأرسل في طلبهم من جميع الأمصار والأقطار ، فأتوا إليه ، واتخذوا أماكنهم لديه ... وفي مجالسه كان يستمع إلى المواعظ والحكم فقد سمع مواعظ ابن القرظي وغيره من الوعاظ والحكماء " (١) .

وقد استفاد عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - من هذه المجالس الوعظية ، فكان " لا ينفذ كتابا ، ولا يأمر بأمر ، ولا يقضى بقضية إلا عن رأى العلماء الجلة ومشاورتهم ، والصدر عما يجمعون عليه ويذهبون إليه ، ويرونه من السنة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن أصحابه المهتدين بهديه ، المقتدين بسنته " (٢) .

واجب العلماء تجاه السلطان

كثيرا ما يضل الناس حكامهم ، ولذا يجب على العلماء النصيح لهم ، وبيان الصالح من الفاسد من الاعتقاد - خصوصا إذا كان الحاكم على غير فقه وفهم - كما حدث مع الزهري والوليد بن عبد الملك ، فقد " دخل الزهري عليه ، فقال له الوليد : ما حديث يحدثنا به أهل الشام ؟ قال : وما هو يا أمير المؤمنين ، أنبى خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبي ؟ قال : بل نبي خليفة . قال : فإن الله يقول لنبيه داود : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) فهذا و عيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة ،

(١) الخليفة عمر بن عبد العزيز والشعر - د / عبد الحميد المعيني - ص ٦٢ ، ٦٣ - مطبوعات نادي أبها الأدبي بالسعودية - الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م ؟
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢١٢ : ٢٢٩ - نقلا عن : العلماء الذين لم يتجاوزوا سن الأشد - على محمد العمران ص ٦١ - دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض - الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م .

فما ظنك بخليفة غير نبي؟ قال: إن الناس ليغفوننا عن ديننا" (١).

وهناك أمور مشتركة بين السلطان والفقهاء، كلاهما مسئول عن إنجازها وإيصالها للطريق القويم، منها:

سعة صدر السلطان للنصيحة، وحكمة العالم وحلمه في إبداء النصيحة، كالذي حدث بين الحارث بن مسكين والمأمون، فقد "دخل الحارث بن مسكين على المأمون فسأله عن مسألة فقال: أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد، وذكر قوله فلم يعجب المأمون. فقال: لقد تيسرت فيها وتيس مالك. قال الحارث بن مسكين: فالسامع يأمر المؤمنين من التيسين أتيس: فتغير وجه المأمون. وقام الحارث بن مسكين فخرج وتندم على ما كان من قوله، فلم يستقر في منزله حتى أتاه رسول المأمون، فأيقن بالشر وليس ثياب أكفاته؛ ثم أقبل حتى دخل عليه، فقربه المأمون من نفسه، ثم أقبل عليه بوجهه فقال له: يا هذا. إن الله قد أمر من هو خير منك بالآلة القول لمن هو شر مني، فقال لنبيه موسى - صلى الله عليه وسلم - إذ أرسله إلى فرعون: (فقلوا له قولا ليينا لعله يتذكر أو يخشى).

فقال يا أمير المؤمنين، أبوء بالذنوب، وأستغفر الرب قال: عفا الله عنك. انصرف إذا أشنت" (٢).

ومن هذه الأمور، الصبر على السلطان، واللين له، قال أبو حاتم: "الواجب على كل من يغشى السلطان وامتحن بصحبته ألا يعد شتمه شتما، ولا إغلاظه إغلاظا، ولا التقصير في حقه ذنبا؛ لأن ربح العزة بسطت لسانه ويده بالغلظة.... وليجانب معه كلام الملق والإكثار من الدعاء في كل وقت، ويجتهد في توقيره وتعظيمه عند الناس، فإن غضب فليحتل في تسكين غضبه باللين والمداراة، ولا يكون سببا لتهبيجه" (٣).

ومنها: اغتنام الأوقات في النصيحة والموعظة، لمواسم العبادة، وأوقات الرضا، وساعات الصفاء والخلوة، والملاحظ: "أن الفقهاء والزهاد كانوا يغتنمون

(١) العقد الفريد ١ / ٨٤.

(٢) العقد الفريد ١ / ٨٠.

(٣) روضة العقلاء ص ٢٧٦.

فرصة وجود الخلفاء في موسم الحج ، فيدخلون عليهم فيعضونهم ويخوفونهم فيما هم فيه من الاسراف والبذخ وهدر أموال المسلمين في غير وجهها الصحيح . فكانت تأتي أنفسهم عليهم السكوت على الظلم والجور ، وإذا كان بعضهم يتعفف من الدخول على أصحاب الشأن فإنني أجد أن الدخول عليهم أنفع وأجدي لما لهم من تأثير فيهم (١) .

مواقف الفقهاء والزهاد من الحكام

وقف الفقهاء والزهاد من الخلفاء ومعانبيهم مواقف مختلفة ، فمنهم من وقف مواقف جريئة - وهم الأعم الأغلب - فلم يداهتوا أو يخافوا في الحق لومه لائم ، بل ثبتوا على الحق ، وواجهوا الأمر بشجاعة وثبات غير مباليين بالعواقب وكثيرا ما كانوا يفوزون في نهاية الموقف ، ويعترف السلطان بحقهم وجرأتهم .

وفي مقابل هذا الصنف وجدنا قلة لمن ينتسبون للعلم وأهله ، داهنت السلطان ، وزينت له السوء ودفعته إليه دفعا ، جهلا منهم بالعواقب ، وطمعا في نعيم زائل . وكثيرا ما كان السلطان ينعي عليهم جهلهم ، ويرد عليهم كذبتهم وتزويرهم . كما سنرى على صفحات هذا البحث .

ورأيت أن أبدأ بالصنف الثاني (المنافق المراني) ، لقلنتهم أولا . ولاترك الخاتمة الحسنة للعلماء الذين لم يؤثروا شيئا على رضا الله - عز وجل - مهما كانت المطامع والمغريات .

نتبين موقف النفاق والمداهنة من هذه القصة التي تحكى أن يحيى بن عبد الله العلوي خرج على الرشيد ثم تصالحا على عهد بالأمان ، ثم نقل للرشيد . عن يحيى ما يريب فأراد أن يقتله لكن العهد كان مسنولا ، فجاء الرشيد بالعهد يقلبه لعله يجد مخرجا ودعا محمد بن الحسن الشيباني ، وأقرأه العهد ، فصيح محمد العهد وأفتى بالأمان ليحيى لكن الرشيد لم يرض بحكم محمد بن الحسن فدعا بأبي البختری (الذي وصفه أحمد بن حنبل بأنه كذاب) فأقرأه العهد ، فأفتى بنقض العهد فعينه الرشيد قاضي القضاة (٢) .

(١) الإمام سفيان بن سعيد الثوري - د / عصام محمد الحاج على ص ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٢) انظر القصة بالتفصيل في : أبو حنيفة ، لعبد الحليم الجندی ص ١٣٨ .

واما مواقف المواجهة والجراة فى الفتوى فهى كثيرة جدا ، وسأذكر أتاها تأثيرا . وأبعدها خطرا .

وأول هذه المواقف موقف المحتسب الذى عينه أتابك سلطان دمشق فقام المحتسب بممارسة حقه فى العمل ومنه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى مع من عينه ، فدخل على السلطان ذات مرة وقال له : قم عن هذه الطراحة وارفع هذا المسند الذى وراء ظهرك فإنهما حرير ، وأخلع هذا الخاتم من إصبعك فإنه ذهب ، وقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الذهب والحرير : إن هذين حرام على ذكور امتى حل لإناثها . فنهض السلطان عن طراحته ، وأمر برفع مسنده . وأخلع الخاتم من إصبعه (١) .

فهذه القصة تدل على عدة أمور مهمة ، منها : جراءة الفقيه المحتسب التقى الذى لم يخش فى الحق لومة لائم فبدأ بولى الأمر لتصالح الأمة . ومنها : طاعة ولى الأمر للفقيه المكلف بأمور الدين ، ومنها : الكشف عن تقاعس المحتسبين السابقين بل ربما نفاقهم للحاكم حيث تركوه فى هذه المخالفة الشرعية دون توجيه طمنا فى القربى منه وجبا فى عطايه .

ومن المواقف الجريئة فى الحق موقف أبى يوسف صاحب أبى حنيفة حين ولى القضاء . وقد اختصم رجل مع الخليفة العباسى موسى الهادى فى بستان ، فرأى أبو يوسف أن الحق مع الرجل - وكان للخليفة شهوده - فطلب أبو يوسف من الهادى أن يحلف فنكل الهادى عن اليمين ورد البستان لصاحبه . وكذلك حلف أبو يوسف الرشيد فى قضية رأى أنه يحلفه فيها وعندما اعترض عليه الوزير الفضل بن الربيع وأراد أن يشهد رد أبو يوسف شهادته وقال : سمعتك تقول للخليفة : أنا عبدك ، فإن كنت عبدا فلا شهادة للعبد ، وإن كنت كاذبا فإنك لكذلك (٢) .

(١) انظر : نظام الحسبة فى العراق حتى عصر المأمون نشأته وتطوره - رشاد عباس معتوق ص ١١٧ - الناشر : تهامة بجدة - الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م - والحديث الشريف فى سنن ابن ماجه ١١٨٩ / ٢ .
(٢) انظر : أبى حنيفة ، الجندى ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

ومن المواقف الشجاعة : موقف الإمام الثوري من أبي جعفر المنصور ، فقد دخل الثوري على أبي جعفر في أثناء حجه ونصحه بأن ما أخذه من مال المسلمين لا يجوز له بهذا البذخ ، وأخبره بأن عمر بن الخطاب أنفق في حجه ستة عشر دينارا ورأى أنه أجحف بيت المال ، وذكر الثوري حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " رب متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار غدا " ، وكعادة المنافقين يرد عليه أحد المقربين وهو أبو عبيد الكاتب بأن مثل هذا الكلام لا يستقبل به أمير المؤمنين : فيجيبه سفيان بعنف : اسكت فإنما اهلك فرعون هامان ، وهامان فرعون (١) .

وهناك مواقف كثيرة تشير إلى ثبات الفقهاء والزهاد ، وعدم انحرافهم مع تيار أهل الهوى . بل كانت مهمتهم حراسة العقيدة ورد الناس إلى نصاب الحق مهما كان الثمن . وتحتاج هذه المواقف إلى شجاعة أدبية : لأنه ليس " من السهل أن تقبل الطبيعة البشرية النقد بسهولة أو يصدر رجب ، فما بالك بالخليفة ، ذلك العربي القح الذي تعود السيطرة وعدم الإدعان لمن هو أقل منه ويقال إنه لم يكن أحد يجرو على مجابهة المنصور بأفعاله ورفض عطايه بشمم وإباء وتمنع غير عمرو بن عبيد الذي كان يعظ المنصور حينما يطلبه " (٢) .

ولا يستطيع الشجاعة الأدبية إلا من قويت نفسه ، وعظمت منزلته لدى الخلفاء ؛ بسبب ترفعه عن الدنيا . وثباته على الحق ، إذا إن أكبر ما يقوى " الشجاعة الأدبية في النفوس تعظيم أمر الله تعالى وشدة الثقة بما وعده أنصار الحق من العزة في الدنيا والسعادة في الآخرة . ومن قرأ التاريخ وقف على أسماء رجال كثيرة لم ينالوا رفعة في حياتهم ، وذكرنا جميلا بعد مما تهم ؛ إلا لأنهم كانوا يجهرون بكلمة الحق في وجوه الوجهاء أو الرؤساء لا يصددهم عن الجهر بها خوف من مكرهم ، ولا طمع فيما بأيديهم " (٣) .

(١) أبو حنيفة ، للجندي ص ٢٥٨ .

(٢) السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري - د / نعمان محمد أمين طه ص ١١٩ وما بعدها - دار التوفيق للطباعة بالأزهر - مصر - للطبعة الأولى ١٣٩٨ = ١٩٧٨ م .

(٣) رسائل الإصلاح ص ٣٢ .

وتفويض تلك الفترة التي ندرسها بأسماء الفقهاء والزهاد الذين جابهوا الظلم في
عنفوانه نصحا وإرشادا . كتابية ومشافهة ، دون خوف أو وجل ، وتحمل كثير
منهم السجن والتعذيب في سبيل إيصال كلمة الحق ، وكانوا في نهاية المطاف
يقفزون برضا الخلفاء والصفح عنهم ، ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل في محنته ،
والإمام أبو حنيفة في سجنه ، وغيرهما كثير .

الفصل الثاني
رسائل الفقهاء والزهاد
للخلفاء الأمويين والعباسيين

المبحث الأول

موضوعات رسائل الفقهاء والزهاد

الرسالة فن من فنون النثر العربى القديم ، والمراد بالرسالة " الخطاب المكتوب فى غرض جزئى ، يبعث به صاحبه إلى آخر . وقد عرفت الرسائل منذ الجاهلية فى بعض البيانات التى عرفت فيها الكتابة ، ولما جاء الإسلام كتب الرسول صلى الله عليه وسلم - إلى ملوك العرب والعجم يدعواهم إلى الدين وتبعية الخلفاء من بعده وأخذ هذا الفن يرقى ويتنوع مع تقدم الحياة الإسلامية حتى صار من أكثر فنون الأدب شيوعا ، وأغلبها على حياة الدواوين وبين الأفراد " (١) .

وفى تاريخنا العربى رسائل كثيرة جيدة ، دبجها كتاب مجيدون عرفوا بإتقان هذا الفن الأدبى ، كعبد الحميد ، وابن العميد ، والقاضى الفاضل وغيرهم ممن كتبوا أجود الرسائل التى تذاققتها كتب الأدب ، ودارت حولها الدراسات الأدبية تاريخا ونقدا . كما اهتم كثير من العلماء بهذا الفن ، فألفوا فيه كتابا أو فصولا من كتب ترسم للكتاب الطريق الصحيح لخوض هذا الفن ، ككتاب الصناعتين للعسكرى ، والمثل السائر لابن الأثير ، وصبح الأعشى فى صناعة الإنشا لأبى العباس القلقشندى .

فتاريخ هذا الفن قديم فى الأدب العربى - كما رأينا - حيث يرجع تاريخه " إلى ما قبل ألف وأربعمائة عام ، وجله بارع ، وهو من مآثور القول ، فى حين أن الغالب لم ينتبه إلى هذا الفن من الأدب إلا فى القرون الثلاثة الماضية ، إذ أحلوا هذا الفن من الأدب مكانته المرموقة .

(١) الأسلوب - أحمد الشايب ص ١١٥ - مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة الطبعة الثامنة ١٩٨٨ م .

ولشد ما اعجب الأدباء والقراء برسائل مدام دو سيفيني التي عاشت في القرن السابع عشر ، فقد تبوأَت المكانة الرفيعة بين أدباء عصرها ، ومازالت رسائلها تتمتع بالشهرة الكبيرة في الأدب الفرنسي حتى اليوم" (١) .

ولا يستطيع كتابة الرسائل إلا الأدباء المجيدون الذين يتقنون في ضروب القول ، ويدورون في فلك الفن ، إذ إن معالجة هذا الفن " ليس بالأمر اليسير ، كما يظنه بعض الناس ، فهو يتطلب بادية ذي بدء ، أصالة أدبية ، ومقدرة بارعة على التعبير ، مع سعة الاطلاع في المعارف ، يرفد ذلك ذوق سليم " (٢) .

فكتابة الرسالة تتطلب من كاتبها أن يستخدم الطاقات الفنية التي تتعلق بدقة اختيار الألفاظ ، وحلاوة تركيب الجمل . وصياغة العبارات في تأليف المعاني ، والموازنة بينها وبين الكلمات التي تعبر عنها إلى جانب توفير الإمتاع الفني للقارئ أو الملتقى (٣) .

وعرف الفقهاء والزهاد فن الرسائل ، فتبادلوها في المناسبات المختلفة ، وعند الحاجة إليها ، لبيان مسألة ، أو رد على مسألة ، أو توضيح غامض ، أو غير ذلك مما تدعو إليه الحاجة . وسنشير إلى بعض هذه الرسائل المتبادلة بينهم : لنبين مدى معرفتهم بهذا اللون النثري البديع .

من ذلك رسالتان بين الإمام مالك ويحيى بن يزيد النوفلي ، علم يحيى بن يزيد بما عليه الإمام مالك من رغد في العيش ، ولباس جيد ، وإقبال على التمتع من طبيبات الحياة ، فأسدى إليه نصحه متمثلاً في هذه الرسالة :

(١) رسائل الخليل / مقدمة بقلم : عدنان مردم بك ص ٧ - مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .
(٢) المرجع نفسه ص ٧ ، ٨ .
(٣) انظر : النثر الفني في القرن الرابع - د / زكي مبارك ص ١٠ - دار الجليل - بيروت ١٩٧٥ م .

" أما بعد فقد بلغني أنك تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطى . وتجعل على بابك حاجبا . وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت إليك المطى وارتحل إليك الناس ، واتخذوك إماما ورضوا بقولك ، فاتق الله - يامالك - وعليك بالتواضع . كتبت إليك بالنصيحة منى كتابا ما اطلع عليه غير الله - سبحانه وتعالى - والسلام " (١) .

ويرد عليه الإمام مالك في تواضع الأنمة ، فيقول : " أما بعد فقد وصل كتابك فوق منى موقع النصيحة والشفقة والأدب . أمتك الله بالتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيرا ، وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . فأما ما ذكرت لي أنى أكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطى فتحن نفعل ذلك . فقد قال الله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) وإنى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه . ولا تدعنا من كتابك نلصق ندعك من كتابنا والسلام " (٢) .

ولأن الأنمة يعرفون طريق الهدى والرشاد ، كانوا يقبلون النصيحة ، بل ويذيعونها في الناس ، ولا أدل على ذلك من اشتهار هذا الكتاب على الرغم من سرية . فهذا الكتاب (الذي لم يطلع عليه أحد الا الله تعالى قد ذاع على الأسماع عن طريق مالك . فلقد أراد كاتبه أن يكون درسا لمالك و أراد مالك أن يكون الكتاب الرد عليه درسا من دروسه للأنمة " (٣) .

ومن هذه الرسائل ، رسالة الإمام الليث بن سعد للإمام مالك يرد فيها على كتابه ، ويخالفه في بعض الأحكام ، ويبين رأيه في بعض المسائل ، وهي رسالة طويلة تشتمل على الأخوة والصداقة ، كما تفيض بذكر أحكام بعض المسائل الفقهية ، وقد بدأها بقوله : (سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد عافانا الله وإياك ، وأحسن لنا العقبة في الدنيا والآخرة - قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني ،

(١) مالك بن أنس إمام دار الهجرة ص ١١٦ .

(٢) ، (٣) المرجع السابق ص ١١٦ .

فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم" (١) .

ويتطرق في صلب الرسالة إلى سرد بعض الفتاوى المخالفة لأهل المدينة والتي يفتي بها الليث ، ثم يذكر بعض الفتاوى التي يفتي بها مالك وهي مخالفة لرأى الليث ، فيقول : (وقد بلغنا عنكم شيئا من الفتيا مستكرها ، وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتابي ... وذلك أنه بلغني أنك أمرت زفر بن عاصم الهلالي - حين أراد أن يستقي أن يقدم الصلاة قبل الخطبة ، فأعظمت ذلك ، لأن الخطبة والاستسقاء كهينة يوم الجمعة إلا أن الإمام إذا دنا من فراغه من الخطبة فدعا حول رداة ثم نزل فصلى " (٢) .

ويختم رسالته بقوله : (وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك ، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك مع استئناسي بمكانك ، وإن نأت الدار ، فهذه منزلتك عندي ورأيت فيك فاستيقنته ، ولاتترك الكتاب إلى بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك فإني أسر بذلك ، كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا وتمام ما أنعم به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله " (٣) .

فالرسالة على ما فيها من فقه وأدب ، لاتخلو من فنية النثر وجودة اللفظة ، وجمال العبارة ، وسهولة التركيب ، وهي تكشف عن أدب الاختلاف الذي كان يتمتع به الفقهاء ، فهم مع اختلافهم في الاجتهاد إلا أن حسن الحوار ، وصفاء وسلامة الصدر كان رائدهم ، فاختلاف الرأي لم يفسد الأخوة ، ولم يعكر صفو مودتهم - رحم الله فقهاءنا وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرا .

(١) . (٢) . أعلام بموقعين عن رب العالمين - لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ٦٩ / ٣ : ٧٣ - تحقيق / محمد عبد السلام إبراهيم - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ١٤١٧ هـ = ١٩٩٦ م .
(٣) . المصدر السابق ٧٣ / ٣ .

ويعلق الإمام محمد أبو زهرة على هذه الرسالة تعليقاً يرى فيه أمرين :

أولاهما -

أن الجدل بين الفقهاء كان يجرى فى كل مسائل الفقه المتشعبة ، وأن هذا الجدل كان يسوده طلب الحقيقة وليس التعصب للرأى .

وثانيهما -

أن الليث فى عرضه المسائل التى خالف فيها مالكا بيّن آراء الصحابة والتابعين المختلفة واختار من بينها ما رآه رأى الكثرة ، واعتناقه هذا لا يعد شذوذاً^(١) .

واضطر الفقهاء فى بعض الأحيان لكتابة الرسائل كأجوبة عن بعض الاستفسارات أو نهياً عن اتباع بعض المنكرات ، كتب رجل للإمام أحمد بن حنبل يسأله عن مناظرة أهل الكلام ، فكتب إليه أحمد : " أحسن الله عاقبتك . الذى كنا نسمع ، وأدركنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام ، والجلوس مع أهل الزيغ ، وإنما الأمر فى التسليم والانتهاج إلى ما فى كتاب الله . لاتعد ذلك ، ولم يزل الناس يكرهون كل محدث من وضع كتاب ، وجلوس مع مبتدع ، ليردوا عليه بعض ما يلبس عليه فى دينه " (٢) .

والرسالة على قصرها يبدو فيها عدم اهتمام الإمام أحمد بانتقاء ألفاظها ، ولابتجويد أسلوبها ، كأنها كل ما يعنيه رد الرجل عن مقارفة الإثم بالجلوس مع أهل الكلام ومناظرتهم - وهذا بخلاف كثير من الفقهاء والزهاد الذين عنوا برسائلهم عناية أدبية مع ما فيها من آراء فقهية أو مجادلة - كما رننا فى رسالة الليث لمالك .

(١) انظر : الشافعى - حياته وعصره - آراؤه وفقهه - الإمام محمد أبو زهرة ص ٥٨ وما بعدها - دار الفكر العربى - القاهرة ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ م .
(٢) ابن حنبل ، للإمام محمد أبو زهرة ص ٣٧ .

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه تلك الرسالة التي بعث بها سفيان الثوري إلى بعض أصحابه يدعو فيه إلى العزلة والخمول وعدم الشريرة وبغض الرئاسة ، يقول فيها :

" انك في زمان كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - يتعوذون أن يدركوه ولهم من القدم ما ليس لنا ، فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم وقلة صبر ، وقلة أعوان على الخير وفساد من الناس ، وكدر من الدنيا ، فعليك بالأمر الأول ، والتمسك به ، وعليك بالخمول ، فإن هذا زمن خمول ، وعليك بالعزلة . وقلة مخالطة الناس ، فقد كان الناس إذا التفتوا ينتفع بعضهم ببعض ، فأما اليوم فقد ذهب ذاك ، والنجاة في تركهم فيما نرى ، وإياك والأمراء أن تدنو منهم وتخالطهم في شيء من الأشياء ، وإياك أن تخدع ، فيقال لك تشفع ، وتندرا عن مظلوم أو ترد مظلمة ، فإن ذلك خديعة إبليس ، وإنما اتخذها فجار القراء سلما " (١) .

والرسالة على ما تنطوى عليه من نصح وتوجيه ، لا تخلو من إبداع أدبي تمثل في اختيار اللفظة ، وجمال العبارة ، وتحسين لفظي جاء في صورة السجع الجميل (وقلة صبر وقلة أعوان على الخير - وإياك أن تخدع ، فيقال لك تشفع) ، ومزاوجة بين الأمر والنهي ، والخبر والإشياء ؛ مما يدل على تمكن الفقيه الزاهد سفيان الثوري من ناصية البيان ، وإحكام اللغة وبراعته فيها .

*** أما موضوعات الرسائل الموجهة للخلفاء ، فتدور حول الوعظ والتوجيه ، وما ينطويان عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنصيحة بالعدل في الرعية ، ومحاسبة العمال والأخذ على يد الظالم المتجبر منهم ، والتحذير من الاغترار بطول الأجل والركون للدنيا ، ورسم صفة الإمام العادل ، والتوجيه للسلوك الحسن في الدنيا والعمل للأخرة بأداء أوامر الله واجتناب نواهيه ، وغير ذلك من الموضوعات الدينية التي يطلبها الفقيه أو الزاهد من الخليفة ويأمره بالتحلي بها ، والابتعاد عن نقضها .

ش

(١) حنية الأولياء ٦ / ٣٧٧ - نقلا عن : ابن حنبل ، للإمام محمد أبو زهرة ص ٨٢ .

و أول ما يلقانا من هذه الرسائل ، رسالة أنس (١) بن مالك - رضي الله عنه - خادم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وراوى بعض أحاديثه ، وقد وجه رسالته لعبد الملك بن مروان يوجهه للأخذ على يدى الحجاج بن يوسف الثقفى الذى عاث فى الأرض فسادا ، وقويت شكيمته على كل ضعيف ، وجار على كل صاحب حق ، ونطاول على صالحى هذه الأمة - ومنهم أنس بن مالك - وتبدأ القصة بدخول أنس بن مالك على الحجاج ذات يوم ، فيقول له الحجاج :

" إيها يا أنس ، يوما مع على ، ويوما مع ابن الزبير ، ويوما مع ابن الأشعث ؟ ! أما والله لأستأصلنك ، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة (٢) ! . فقال أنس : من يعنى الأمير ؟ قال : إياك أعنى ، سك الله سمعك (دعاء عليه بالصمم) . قال أنس : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لو لا الصببية لما باليت أى ميتة مت . ثم خرج من عنده وكتب رسالته إلى عبد الملك بن مروان " (٣) .

فأنس - رضي الله عنه - لم يصطدم مع الحجاج ، وإنما تخلص من الموقف بالاسترجاع والاعتذار بالصببية ، ثم خرج من عنده ووجه رسالة للخليفة عبد الملك بن مروان ، قال فيها :

" من أنس بن مالك خادم رسول الله إلى عبد الملك بن مروان : أما بعد فإن الحجاج قال لى هجرا (قبيجا) ، وأسمعنى نكرا ، ولم اك لذلك منه ولا منك أهلا ، فخذ على يديه ، واعل عليه فإنى أمت إليك بخدمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وصحبتى إياه ، والسلام عليك ورحمة الله " (٤) .

(١) أنس بن مالك الأنصاري - رضي الله عنه - شهد فتح تستر وكان على الخيل ، صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخدمه إلى أن قبض ، مات فى البصرة سنة ٩٣ هـ ، وكان آخر من مات من الصحابة فيها . انظر العفو / اعتذار ١ / ٩٠ هامش رقم ١٥٧ .

(٢) المراد : لأذهبن بك حتى لا يبقى لك أثر - وفى اللسان : وفى حديث الحجاج : لأقلعنك قلع الصمغة . أى : لأستأصلنك ، والصمغ إذا قلع انقلع كله من الشجرة . ولم يبق له أثر ، وربما أخذ معه بعض لحائها .

(٣) العفو والاعتذار - لأبى الحسن محمد بن عمران العبدى المعروف بالزقّام البصرى صاحب ابن دريد ٢ / ٥٨١ ، ٥٨٢ - تحقيق د / عبد القدوس أبو صالح - دار البشير - عمان - الأردن - الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م . وورد الخبر فى البيان والتبيين ١ / ٣٥٧ .

(٤) العفو والاعتذار ٢ / ٥٨٣ .

فالتوجيه هـ: بأسلوب أدبي لا ثورة فيه ولا غلظة ، وإنما التزم أنس الهدوء ، وحرك مشاعر الغضب على هذا العامل بإثارة النوازع الدينية لدى عبد الملك ، وذلك لصلة أنس برسول الله ، ولفت نظره لما تستحقه هذه الصلبة المباركة ؛ فتحركت نوازع أندين في قلب عبد الملك ، وأثرت فيه ، ووبخه ، وأمره بعدم التعرض لأنس مرة أخرى ، ثم وجه رسالة لأنس بن مالك قال فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت من شكايك الحجاج ، وما سلطته عليك ، ولا أمرته بالإساءة إليك . فإن يعد إلى مثلها فاكتب إلى أنزل به عقوبتي ، وأحسن لك معونتي ، والسلام عليك ورحمة الله " (١) .

ونلاحظ هنا استجابة عبد الملك لرسالة أنس . والعمل على إنفاذ ما فيها ، بل والتعهد بحمايته من هذا الجبار ، والتنصل من المشاركة في الإساءة لهذا الصحابي الجليل . كما نلاحظ المساواة بين الرسالتين في الطول ، والاتفاق في البدء والختام حتى في السلام ، (والسلام عليك ورحمة الله) وفي أسلوب الخطاب بصيغة المفرد وليس صيغة الجمع ، وهذا يعكس صورة النشر الفني في ذلك العهد كما يعكس صورة الخلق التي كان عليها الصحابة مما جعل غيرهم يتعلم منهم أسلوب الخطاب ، حتى لو كان الخليفة ! .

ولم يتوان الحجاج - على قسوته - في استرضاء أنس والاعتذار إليه بعد قراءة كتاب عبد الملك الموجه إليه ، ولهذا " ما عرف لعبد الملك مكرمة أكرم من هذه " (٢) .

ونلتقي في رسائلنا التي ندرسها بقطبين من أقطاب الزهد والتقوى أحدهما حاكم والآخر محكوم ، ألا وهما : عمر بن عبد العزيز والحسن البصري - رحمه الله تعالى - حيث التقيا في الفكر والسلوك ، واتفقا في العلم والعمل ، فكاتا على قلب رجل واحد ؛ ولهذا أثرت مواعظ الحسن - مكتوبة ومشافهة - في الخليفة الزاهد أترا بالغا لم تبلغه عند غيره من خلفاء .

(١) العفو والاعتذار ٢ / ٥٨٣ .
(٢) العفو والاعتذار ٢ / ٥٨٦ .

قال ابن عبد البر : " معلوم عند جماعة العلماء ، أن عمر بن عبد العزيز كان لا ينفذ كتابا ، ولا يأمر بأمر ، ولا يقضى بقضية إلا عن رأى العلماء الجلة ومشاورتهم ، والصدر عما يجمعون عليه ويذهبون إليه ، ويرونه من السنة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن أصحابه المهتدين بهديه المقتدين بسننه " (١) .

أحب الخليفة الزاهد علماء الأمة المخلصين ، فأفصح لهم " فى مجالسه مكانا بارزا وأرسل فى طلبهم من جميع الأمصار والأقطار فأتوا إليه ، واتخذوا أماكنهم لديه وفى مجالسه كان يستمع إلى المواعظ والحكم ، فقد سمع مواعظ ابن القرظي وغيره من الوعاظ والحكماء " (٢) .

وكان الحسن البصري عالما ورعا ، وزاهدا تقيا ، وكان ليقا كيسا لا يصادم بما يهدر الدم ، بل يراعى المقتضى المناسب دون أن يؤثر السكوت كمن استكانوا إلى المناصب غانمين ، ودون أن يجاهر بالثورة حيث لا أمل فى النجاح وله مع الحجاج وقفات هائلة وسلمه الله من شره ، وربما حضر مجلسه فلم يقم بل يوسع له ويجلس إلى جنبه ولا يغير كلامه الذى هو فيه " (٣) .

وتمتع الحسن مع كل هذا ببلاغة منقطعة النظير ، فكان " بارع الفصاحة ، بليغ المواعظ ، كثير العلم . وجميع كلامه فى الوعظ وذم الدنيا أو جلّه مأخوذ لفظا ومعنى ، أو معنى دون لفظ ؛ من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فهو القدوة والغاية " (٤) .

ونحن نخالف المرتضى فى الجزء الأخير من شهادته للحسن ، ونرى أنه تأثر بالإمام على ، لكن كانت له شخصيته المتفردة ، وبلاغته الخاصة به .

(١) تذكرة الحفاظ الذهبي ١ / ١١٨ وما بعدها - نقلا عن : العلماء الذين لم يبلغوا الأشد ص ٦١ .
(٢) الخليفة عمر بن عبد العزيز والشعر - د / عبد الحميد المعينى ص ٦٣ .
(٣) الحسن البصري إمام أهل البصرة - الشيخ / كامل محمد عويضة ص ٢٣ ، ٥٣ - دار الكتب العلمية بيروت لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥ م .
(٤) أمالى المرتضى ١ / ١٥٣ .

ولم نكثر الحديث عن الحسن لأجل إطالة أو استطراد ، وإنما لما له من دور بارز في مجال النشر الفني في العصر الأموي ، حيث مثل الوعظ والزهاد في المضمون وتمثل روح الفن الأصيل في كتاباته وخطبه ومواعظه . كما سنرى على هذه الصفحات .

ولى عمر بن عبد العزيز أمر المسلمين ، فكتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رسالة جامعة رسم له فيها صفات الإمام العدل وما يجب أن يتحلى به ، ووعظه عظمت بالغات أحلت في قلب عمر فعمل بها وتأثر لها .

بدأ رسالته بصيغة الأمر ودون مقدمات مبينا دور الإمام العادل في الأمة ، ثم ثنى برسم صورة للإمام العادل متمثلة في الشفقة على الرعية ، و الرعاية الجادة المثمرة ، والحماية الحقيقية من مordat المهالك ، واستخدام الحسن التشبيه وسيلة من وسائل رسم هذه الصورة المتشعبة الجوانب التي تعطي في النهاية رسما متكاملًا لإمام تمتع بكل سمات العدل ، فهو أب حان ، وأم شفوق ، ووصي يتامى ، وقلب نابض بالصلاح ، ومبلغ عن الله - عز وجل ، قال الحسن :

" اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جانر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصف كل مظلوم ، ومفرع كل ملهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرقيق الذى يرتادها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ، البرة الرقيقة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكوته ، ترضعه تارة ، وتعظمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، ويسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويرىهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم " (١) .

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٩٥ ، ٤٩٦ .

وبعد هذه المقدمة الوصفية البارعة ، يتطرق الحسن إلى الإنذار والتخويف من عذاب الله ، والدعوة إلى عمل الصالحات والنجاة من النار ، متخذاً في هذا الوعظ أساليب عديدة كالأمر والنهي والنداء ، واستخدام الرسم لمناظر منفرة تشييب لها النواصي ، وتتشعر منها الأبدان ، وأول هذه المواقف هي التركيز على حفظ الأمانة ، والتحذير من تضييعها ، والتخويف من الموت وتفرق الأحبة ، ومواجهة العمل ، يقول الحسن : " فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّك الله كعبد انتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشتت العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخباثت والفواحش ، فكيف إذا أتاه من يليها ؟ وإن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ وأذكر يا أمير الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ، ولما بعده من الفرع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوابك ، ويفارقك أحباؤك ، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وأذكر يا أمير المؤمنين إذا بعث ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتابات لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها " (١) .

ويتدرج الحسن في موعظته تدرجاً مترابطاً منطقياً ، فبعد أن مهد السبيل لقلب الحاكم ، ورسم له الصورة المثلى للإمام العادل - في مقدمة رسالته - تدرج إلى الإنذار والتخويف - في الجزء السابق - وقبل الخاتمة يتطرق إلى أمر هذا الإمام الذي يرجو العدل ، يأمره بالعدل في رعيته ، ويحذره من الركون للحاشية الطاغية التي ترتع في مهالك حاكمها ، ويخوفه من قدرة الحاكم الأعلى - سبحانه وتعالى - ويذكره بالوقوف بين يديه للسؤال عن هذه الرعية ، يقول الحسن :

" فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل ، قيل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لاتحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلية ، ولا تسلك بهم سبيل الضالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فأتهم يرقبون في مؤمن إلا ولأذهمة ، فتبوء بأوزارك ، و أوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ،

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٩٥ ، ٤٩٦ .

وأتقلا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتمتعون بما فيه بؤسك ، وياكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدا ، وأنت مأسور في حبال الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبیین والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحق القيوم " (١) .

ويختتم الحسن رسالته - أو قل وثيقته الدستورية - بخاتمة بليغة ، فيها التواضع ، والإشارة لقيمتها ، والدعوة للمحافظة عليها ، والتعليل لقبولها تعليلاً واقعياً ؛ فالحق مر ، ولكنه يداوى المرضى كما يصنع الدواء بالعليل ، فمحبو المريض يكرهونه على شربه ؛ لما فيه عافيته وسلامته ، وكذا الرسالة . قولها مر ، وعاقبة من قبلها وعمل بها الشفاء والسلامة ، يقول الحسن في خاتمة رسالته :

" إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظمتي ما بلغه أولو النهى من قبلي ، فلم ألك شفقه ونصحا ، فأنزل كتابي إليك كمدادى حبيبته ، بسيفيه الأدوية الكريهة ؛ لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المرمنين ورحمة الله وبركاته " (٢) .

ونلاحظ في هذه الرسالة عدة جوانب ، من أهمها :

- ١ - تكرار ألفاظ الاحترام والمودة ، مثل أمير المؤمنين ، حيث كررها خمس عشرة مرة في هذه الرسالة .
- ٢ - لين الجانب في النصيح ، وذكر ألفاظ الشفقة والرحمة والموعظة ، وعدم استخدام الغلظة في إسداء النصيح والتوجيه .
- ٣ - بدوها وختامها بالأمر (اعلم ، أنزل) لما فيه من الاهتمام بشأن المأمور به والمحافظة على ما فيه من منافع .

(١) المصدر السابق ٢ / ٤٩٦ ، ٤٩٧ .
(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٩٧ .

والتعليان لهذه الملاحظات يكمن فى اتفاق الناصح والمنصوح فى العقيدة والسلوك والمنهج ، كما يكمن فى طلب المنصوح هذا النصح ، فجاءت النصائح هادئة رزينة ، لا ثورة فيها ولا غلظة .
وهذه الرسالة " تبدو متميزة تميز شخصية الزاهد الذى لم يعرف مواراة ولا تزلفا ولا تفاقا فالزاهد الكاتب هنا يبدو عفيف النفس طاهر القلب لا يعرف النفاق ، وربما كانت ثقته فى ورع الحليفة دافعا مشجعا من وراء كتابته إليه بهذه الصراحة وذلك الوضوح ، ومن ثم عمد إلى تكثيف حسه الدينى عبر سطره : تقاريره وصوره ، وهى كثافة تكثر فيها الاقتباسات الصريحة من الآيات القرآنية أو الاكتفاء باللمح بالحس الدينى " (١) .

وكان عمر بن عبد العزيز كثيرا ما يطلب من الحسن البصرى الكتابة إليه ، فكتب إليه رسائل فى ذم الدنيا ، وفى الصبر وعاقبته ، كما كان يكتب إليه الحسن من غير طلب منه ، مثل رسالته التى قال فيها :

" أما بعد ، فإن طول البقاء الى فناء ، فخذ من فنانك الذى لا يبقى ، لبنانك الذى لا يفنى ، والسلام " (٢) .

ومن رسائل الحسن البليغة ، رسالته فى ذم الدنيا ، وقد طلب منه ذلك عمر بن عبد العزيز . فشدد الحسن طاقته ، وحشد وسائل بلاغته ؛ ليصور الدنيا صورا عديدة تهدف فى مجموعها للفتك بمحببيها ، والتخلي عن عابديها .

وخداع من انس بها .
بدأ الحسن رسالته بالتأكيد على أن الدنيا دار ارتحال ، لا يركن إليها إلا غافل ، ولا يفر منها إلا عاقل ، ثم أخذ فى رسم صورتها البشعة ، فهى تذل من أغرها ، وهى سم قاتل لا يتناول له إلا الجاهل ، وهى عروس مكررة تتزين لخطابها لتقتل من فاز بها ، قال الحسن :

" أما بعد يا أمير المؤمنين : فإن الدنيا دار ظعن وانتقال ، وليست بدار إقامة على حال ، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة ، فأحذرهما . فإن الراغب فيها تارك ،

• (١) النشر الفنى فى صدر الإسلام والعصر الأموى - د / مى يوسف خليف ص ١٥٢ ، ١٥٣ - دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة (ب . ت) .

(٢) أمالى المرتضى ١ / ١٥٨ .

والغنى فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها ، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق ، وجدها تذلل من أعزها ، وتفرق من جمعها ، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه ، ويرغب فيه من يجهله ، وفيه والله حتفه ؛ فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جراحه ، يحتذى قليلا مخافة ما يكره طويلا ، الصبر على لأوائها ، أيسر من احتمال بلاتها ، واللبيب من حذرهما ولم يغتر بزينتهما ، فإنها غدارة ختالة خداعة ، قد تعرضت بآمالها ، وتزينت لخطابها ، فهي كالعروس ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، وهي - والذي بعث محمد بالحق - لأزواجها قاتلة ، فاتق يا أمير المؤمنين صرعها ، واحذر عثرتها ، فالرجاء فيها موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء مود إلى الهلكة والفناء " (١) .

وواضح من هذا الجزء الحاح الحسن البصري على التنفير من الدنيا ، واستخدامه لذلك شتى وسائل التنفير ، من تفبيح للصورة ، والتأكيد بكل ادوات التأكيد والحلف ، والتقديم والتأخير ؛ ليؤكد بذلك على مافى نفسه من بغض لها وعدم الركون لآمالها .

ويكمل الحسن البصري صورة الدنيا الغادرة ، فيقول :

" واعلم يا أمير المؤمنين ، أن أمانيتها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وتاركها موفق ، والمتمسك بها هالك غرق ، والفتن اللبيب من خاف ما خوفه الله وحذر ما حذره ، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين ؛ الدنيا والله يا أمير المؤمنين دار عقوبة ، لها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم عنده ، والحازم اللبيب من كان فيها كالمداوى جراحه ، يصير على مرارة الدواء ، لما يرجو من العافية ، ويخاف من سوء عاقبة الدار ، والدنيا وإيم الله يا أمير المؤمنين حلم ، والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، والعباد في أضغاث أحلام " (١) .

ولم يشأ الحسن ان يختم هذه الرسالة بالسلام ؛ ليظل المتلقى يقظا فطنا ،
يجيل بصره في تلك المشاهد المؤلمة ؛ فيعمل على الخلاص منها . فاختر
حكمة شعرية لتدل على صدق عاطفية ، وإخلاصه في النصيحة والهداية ،
فقال في ختام الرسالة :

" واني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم :

فإن تتج منها تتج من ذي عظمة***** وإلا فاني لا إخالك ناجيا (١) .

وقد بلغت الموعظة مداها ، وأثمرت النصائح ، وأثر التصوير المنفر في
سامعيه - خصوصا الخليفة المرسل إليه - ، فلما وصل كتاب الحسن إلى
عمر " بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده ، وقال : يرحم الله الحسن ،
فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة ، وينبهنا من الغفلة ، والله هو من مشفق ما
أنصح ! وواعظ ما أصدق وأفصح ! " (٢) .

ونحن نرى أن وحدة الموضوع لها أثر كبير في هذا الجانب ، فالموضوع
هو ذم الدنيا " وقد استطاع الحسن أن يدور في هذا الفلك وحده ، وأن
يتعمق في تصوير الدنيا ، وحاول رسم الصورة من جميع اتجاهاتها ، فكانت
كل نقطة بمثابة جانب واحد ، حتى إذا التأمّت اللقطات جميعها تأزرت في
كشف الجوانب الخفية ، وبدت واضحة للبيب الفطن على حقيقتها من غير
تذويق أو خداع - فارتدع عن غيه ، وثاب إلى رشده ، واستيقظ من غفلته -
وكل هذا بفضل التعمق في الموضوع ، والربط بين جزئياته المتناثرة .

وممن راسل عمر بن عبد العزيز ، غيلان الدمشقي ، فمن رسائله هذا الجزء
الوعظي الذي يقول فيه : " اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلفا باليا ،
ورسما عافيا ، فإما ميت بين الأموات لا ترى أثرا فتنبع ولا تسمع صوتا فتنتفع
، طفئ أمر السنة ، وظهرت البدعة أخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يعطى
الجاهل فيسأل " (٣) .

(١) (٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٩٨ ، ٤٩٩ .

(٣) (٣) المنية والامل ، لابن المرتضى ص ١٦ - نقل عن : تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي - د /
شوقي ضيف ص ٤٦٣ - دار المعارف بمصر - الطبعة العشرون ٢٠٠٢ م .

ويبدو من لهجة هذه الرسالة أن غيلان أنشأها في بداية عهد عمر ؛ ليطلعه على الفساد الذي أحل بالامة من قبل توليته الخلافة ، ولا يخفى ما في الرسالة من أسلوب الإحباط الذي يخاطب به عمر ، وربما يدفعه بهذا الأسلوب دفعا للعمل الجاد ، وإصلاح ما أفسده من سبقه .

وعلى كل حال فلم يبلغ غيلان في النصيح والتوجيه - من خلال هذا النص - ما بلغه الحسن البصري في رسائله القيمة النافعة .

ومن الذين راسلوا عمر بن عبد العزيز سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وقد بعث إليه عمر بن عبد العزيز رسالة ، يطلب فيها إرسال كتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضائه في أهل القبلة ؛ ليسير عمر بن عبد العزيز بسيرته ، ويتبع أثره ، ، فرد عليه سالم برسالة طويلة ، مלאها بالنصح والتوجيه ، والتحذير من الظلم واتباع الهوى ، وختمها بالإجابة عن مطلب عمر .

بدأ سالم رسالته بمقدمة وعظيمة حذر فيها عمر من الركون للعزلة والفرقة القصيرة التي لا يركن إليها إلا ظالم ، ولا يقدر أهلها عليها . قال : " من سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز . سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو - أما بعد فإن الله عز وجل - وتقدس أسماؤه لا يقدر أحد قدره سبحانه وتعالى عما يشركون خلق الدنيا كما أراد فجعل لها مدة قصيرة كأن ما بين أولها وآخرها ساعة من نهار ، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء فقال :

(كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) ولا يقدر أهلها منها على شيء حتى تفارقهم ويفارقوها . أنزل بذلك كتابا وبعث به نبيه - صلى الله عليه وسلم - وقدم في ذلك بالوعيد ، ووصل فيه القول ، وضرب فيه الأمثال ، وشرع دينه فيه وأحل فيه الحلال ، وحرم فيه الحرام ، وقضى فأحسن فيه القصص ، وجعل دينه في الأولين والآخرين ديناً واحداً ولم يبدل قوله ، ولم يغير قضاءه ، ولم يختلف رسله ، ولم يسبق أحد من أمره بشيء وعد به أحد ، ولم يسعد أحد من أمره بشيء شقى به أحد " (١) .

(١) الذهب المسبوك في وعظ الملوك تأليف أبي عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدى ص ١٨٠ - تحقيق / أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري ، الدكتور / عبد الحليم عويس - عالم الكتب الرياض السعودية - الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م .

وبعد ان اطمأن سالم إلى تمكن الخوف في قلب عمر ، دخل إلى صلب الرسالة ، فوجهه إلى العدل في الرعية ، والتوسعة عليهم ، حذره من الظلم وعاقبته ، وما يلقاه الظالم يوم القيامة من خسران ووبال على رؤوس الاشهاد - او أشار إلى ظلم بنى أمية وحذره بظانة السوء التي تتخذ الملك سلما للشبهوات يظلم الضعاف ، والتقتير على المساكين ، قال سالم : " ثم إنك يا عمر بن عبد العزيز ليس تعدو أن تكون رجلا من بنى آدم يكفيك من الطعام والشراب ما يكفى رجلا منهم .

اجعل فضل ذلك فيما بينك وبين الرب - عز وجل - الذى ترجوه شكر النعمة . ثم إنك قد ولّيت اليوم أمرا عظيما ليس يليه غيرك دون الله - عز وجل - أحد . فان استطعت أن تغبن من كان قبلك ولا تخسر نفسك وأهلك يو القيامة فافعل ولا قوة إلا بالله ؛ فإنه قد كان قبلك فما مضى رجال عملوا ، وأماتوا ما أماتوا . وأحيوا ما أحيوا ، حتى ولد في ذلك رجال ونشأوا وظنوا أنها هي السنة فلم يسدوا على العباد باب رخاء إلا فتح الله باب بلاء ، فان استطعت أن تفتح عليهم أبواب الرخاء فافعل ؛ فانك لن تفتح منها بابا إلا سد به عنك باب بلاء ، ولايمنعك من نزع عامل أن تقول لا أحد . من يكفيني عمله فإنك إن كنت تعمل لله وتفزع لله أتاح الله لك أعوانا وأتى بهم . وإنما قدر العون بقدر النية . فمن تمت نيته تم عون الله إياه ، ومن قصر من النية قصر من العون بقدر ذلك . فان استطعت أن تجيء يوم القيامة لايتبعك أحد بمظلمة ويجيء من قبلك وهم غابطون لك بقلّة اتباعك فافعل ولا قوة إلا بالله ، فإنهم قد لقوا الله وعالجوا نزع الموت ، وعابثوا هول المظلم ، وانفقات أعينهم التي كانت لاتنقضى لذتها ، وانشقت بطونهم التي كانوا لايشبعون فيها ، واندقت رقابهم غير متوسدة بعد ما تعلم من تظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم . وصاروا جيّفا في بطون الأرض تحت أكامها ؛ لو كانوا إلى جنب مساكين تأذوا من ريحهم بعد إنفاق ما لا يمضى من الطيب كان ذلك إسرافا وتغييرا عن حق الله فإنا لله وإنا إليه راجعون " (١) .

(١) المصدر السابق ١٨٠ ، ١٨١ .

وينتظر سبالم بن عبد الله في ترابط ودقة - إلى جزء آخر أو أقل منورة أخرى من صور الحكم ، ألا وهي محاسبة العمال ؛ فيحذر عمر بلهجة شديدة ، ويدعوه أن يأخذ على أيدي الظالمين منهم ، والأيدي مجالا للتكسب الحرام حتى لا يقع فيما وقع فيه سابقوه من حكام جائرين ، ويرسم له طريق القضاء في محاسبة الناس ، فلا تكفى الظنة ، ولا تنفع البدعة ، ويخيره بين راحة الضمير ، وعذاب المصير ، يقول سالم :

" ما أعظم الذي ابتليت به يا عمر ؛ فاقطع الذي سيق إليك من أمر هذه الأمة بالعدل ، ومن بعثت من عمالك فازجره زجرا شديدا شبيها بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها . المال المال يا عمر . الدم الدم يا عمر ، فإنه لأعدة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه ولم تخيره . واحذر من بعثت من عمالك : أن يأخذوا في ظنة ، أو يعملوا بعصبية ، أو يتخذوا في عملهم خبنة (كتابة عن غلول العامل) ، أو يحدثوا على المسلمين تبعة . أو يسبقوا بدم فأن الله ياعمر . واعلم أن اجترأت على ذلك أوشكت أن يوتى بك صغيرا ذليلا ، وإن أنت اجتنبت ذلك وجدت راحتك في قلبك وسمعتك وظهرك " (١) .

ويختتم سالم رسالته - وثيقته السياسية الدينية - بإجابة طلب عمر ، فيقول : كتبت تسألني أن أبعث إليك بكتب عمر وسيرته وقضائه في أهل القبلة والذمة ، وإن عمر - رضى الله عنه - عمل به في غير زمانك ، وعمل بغير رجالك ، ووليت في زمن تعلم بعد ما عمل وأظهر ما تعلم . وأنا أرجو أن عملت على النحو الذي عمل به عمر بعد الذي رأيت وبلوت من الظلم أن تكون أفضل عند الله من منزلة عمر . وقل كما قال العبد الصالح : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) " (٢) .

وإنما أطلت في ذكر هذه الرسالة الجامعة ؛ لما فيها من وجوه عديدة فهي تطلع المتلقي على لون آخر من ألوان الكتابة الأموية غير التي كتب بها الحسن البصري ، كما تطلعه على رؤية فقيه تابعي جليل ، سليل بيت عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ولا يعدم المتلقي وجود فروق كثيرة بين رسالة الحسن البصري في الإمام العادل - وهذه الرسالة .

(١) ، (٢) المصدر السابق ص ١٨١ ، ١٨٢ .

فالحسن كان خفيف اللهجة ، يخاطب عمر بالقابه ويحفظ له رتبته ، أما سالم فقد جرده من اقبابه ، وناداه باسمه (عمر بن عبد العزيز) وأكثر من لغة التهذيب وأسلوبه كما أن الحسن البصري لم يتطرق إلى عقد الموازنة بين عمر بن عبد العزيز وعمر بن الخطاب كما فعل سالم ونلمح تلك الإشارات من سالم لمن سبق عهد عمر من بنى أمية ، ووصفهم بأبشع الصفات (التمتع بأكل الحرام ، والنوم على الفرش الوطنية والسرير المرفوعة ، والنفور من المساكين والتأذى من ريحهم مع استغلال حقوقهم في التطيب الكاذب) . وربما كانت مندوقه سالم هي صلة القربى بينه وبين عمر بن عبد العزيز ، وصلة القربى بينهما وبين عمر بن الخطاب الذي تطلع عمر بن عبد العزيز لحسن سيرته ، ومحاولة تقليدها . وأخيرا يأتي الفرق في الختام ، حيث ختم الحسن البصري رسالته بقوله : والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، ويأتي ختام سالم بأية قرآنية تصف حال عمر مع عماله ورعيته في هذا الزمن الذي كثر فيه الفساد بحال نبي الله شعيب مع قومه .

*** وننتقل الى العصر العباسي ، فنرى فقهاء وزهاد يوجهون رسائلهم للخلفاء . خليفة تلو الخليفة ، وتدور كلها - كما دارت رسائل العصر الأموي - حول النصيح والتوجيه . - باستثناء رسالة الإمام أحمد - وهم يتحنون الفرصة بعد الفرصة ، لاسداء النصيح لأئمة المسلمين في لهجة أدبية ، وأسلوب بليغ ؛ حتى تقع النصيحة موقعها ، ومنهم من كان يبادر بالكتابة من غير طلب لذلك ، ومنهم من كان يرد على طلب ، ومنهم من كان يقتنص المناسبات فيدلي بوعظه ، ويملي نصاحه ومشورته .

ونبدأ برسالة دينية للإمام أحمد بن حنبل رد بها على كتاب جاءه من المتوكل ، يطلب منه فيها ذكر رأيه في قضيته خلق القرآن ، تلك القضية التي تعرض لمحنها كثير من العلماء والفقهاء ، وذاق مرارتها الإمام أحمد ، ودخل السجن بسببها ، وناله ما ناله من العذاب والعنت في عهد المأمون والمعتصم ولكنه ثبت على الحق في هذا الاختبار الصعب حتى جاء المتوكل . وأبطل هذه القضية ، ونهى العلماء والعمامة عن الخوض فيها وأطلق سراح الإمام . وطلب منه ذكر رأيه فيها ، فأملئ الإمام على ولده عبد الله خلاصة رأيه في هذه القضية ، وحشد طاقته العقلية مستعينا بالقرآن والسنة وأقوال السلف في القرآن الكريم ، وجاء في مقدمتها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، أحسن الله عاقبتك أبا الحسن (عبيد الله : بن يحيى كاتب المتوكل) فى الأمور كلها ، ودفع عنك مكاره الدنيا والآخرة برحمته ، وقد كتبت إليك - رضى الله عنك - بالذى سأل عنه أمير المؤمنين بأمر القرآن بما حضرني ، وإنى أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين ، فقد كان الناس فى خوض من الباطل واختلاف شديد ينغمسون فيه ، حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين ، فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة ، وأنجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس فصرف الله ذلك كله ، رذهب به إلى أمير المؤمنين . ووقع ذلك من الناس موقعا عظيما ، ودعوا الله لأمير المؤمنين ، أن يزيد فى نيته ، وأن يعينه على ما هو عليه " (١) .

وبعد هذه المقدمة ، يحشد الإمام طاقته العلمية ، فيجمع الآراء فى التدليل على حرمة الخوض فى هذه القضية ، فيذكر كثيرا من الأحاديث النبوية ، وآراء الصحابة ، ثم يتلو ذلك بذكر كثير من آيات القرآن ، حتى يخلص فى النهاية لنتيجة يقول بها ويرأها رأيه ، ويرضاها للناس ، فيقول فى آخر الرسالة :

" ولقد روى عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله ، وهو غير مخلوق ، وهو الذى أذهب إليه ، لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام فى شيء من هذا ، إلا ما كان من كتاب الله ، أوفى حديث عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أو عن أصحابه أو عن التابعين ، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود " (٢) .

وعلق الإمام أبوزهرة على هذه الرسالة بقوله : " هذه رسالة صحيحة السند ، ثابتة النسبة ، وقد أملت بعد ذهاب المحنة ، وأحمد فى شيخوخته ، أى وهو فى كمال استوائه العلمى فهمى تدل على رؤية الذى استقر عليه " (٣) .

(١) . (٢) حلية الأولياء نقلا عن : ابن حنبل ، للإمام أبى زهرة ص ١٠٨ : ١١١ .
(٣) المرجع السابق ص ١١١ .

ونحن نقول ليس في الرسالة من فن الكتابة الأدبية سوى المقدمة التي ذكرناها آنفاً ، وهي تدل على تمكن أحمد من اللغة ، ومعرفته بأساليب البيان ، كما أنها تدل على حكمته في تناول هذه القضية ، وعلى معرفته بأسلوب مخاطبة الخلفاء وإقناعهم بما يرى من فقه وعلم . أما ما عدا المقدمة فليس سوى أدلة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة التي جاءت متتابعة لمحاولة إثبات رؤية في هذه القضية ، وإغلاق باب الحديث فيها .

ونلتقي بعد ذلك بثلاث رسائل موجهة لهارون الرشيد ، رسالة قصيرة لابن السماك الواعظ ، ورسالة متوسطة لأبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ورسالة مطولة للإمام مالك وسابداً الحديث برسالة ابن السماك (١) .

وقد بعث بها لهارون الرشيد يعزيه في ولده ، فمزج التعزية بالوعظ ، وركز موعظة في توجيه الخليفة لشكر النعم ، وتغفيره من دار الفناء ، وتحذيره من الركون لها ، والدعوة إلى الصبر . قال ابن السماك :

" أما بعد ، فإن استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه أكثر من شكرك له حين وهبه ، فإنه حين قبضه أحرز لك هبته ، ولو سلم لم تسلم من فتنته ؛ إرايت حزنك على ذهابه وتلهفك لفرقه ! أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك ! أما هو فقد خلص من الكدر وبقيت أنت معلقاً بالخطر وأعلم أن المصيبة مصيبتان إن جزعت وإنما هي واحدة إن صبرت فلا تجمع الأمرين على نفسك (٢) .

رسالته وعظية متماسكة حشد الواعظ أدواته الفنية فيها فأصاب الغرض ونفذ من خلال ذلك للتلميح لهارون بالتمسك بالخير وسبله والابتعاد عن الخطر وطرقه ولكن ابن السماك لم يتطرق إلى موضوع العدل أو الحديث عن نظم الدولة وربما السبب في ذلك هول مصيبة هارون فلم يخرج الواعظ عن المقام.

(١) هو : محمد بن صبيح ، أبو العباس فقيه محدث واعظ حكيم ، كوفي قدم بغداد أيام الرشيد ووعظه ، مواعظه مشهورة ، ثم عاد إلى الكوفة حيث مات سنة ١٨٣ هـ . انظر : صفة الصفوة لابن الجوزي ٣ / ١١٥ وما بعدها .
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ٦٣ / ٣ - تحقيق / د. علي طویل - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م .

احب هارون الرشيد الفقهاء والوعاظ والمحدثون وقربهم إليه "ولقد كان لتقريب الرشيد للفقهاء آثار وأضحة فقد كان كثير الاستماع لنصائحهم ويطلبها إن ضنوا بها ويستمع إليها وإن خشنت ألفاظها وقست عباراتها فهو يستمع إلى مالك ناصحاً له ومرشداً ويستمع إلى غيره ولذلك كان للفقهاء والفقهاء مكانة في عصر الرشيد يعتزون بعزة العلم ويعلمون بعلمه " (١) .

ولم يكتف الرشيد بالفقهاء فقد جمع حوله كثيراً من الزهاد كالإمام الثوري الذي كان يعظه ويغليظ له القول وسنرى هذا عند الحديث عن المواعظ وفي هذه القصة ما يدل على ذلك "أراد الرشيد أن يتزوج على زبيدة فقالت له لا يحل لك ذلك فبعث إلى سفيان الثوري فقال الرشيد :

إن زبيدة تزعم أنه لا يحل لي أن أتزوج عليها وقد قال الله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) ثم سكت ، فقال سفيان : تتم الآية، يريد أن يقرأ : (فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة) وأنت لا تعدل ، فأمر لسفيان بعشرة آلاف درهم ، فأبى سفيان أن يقبلها " (٢) .

وأما الرسالة المتوسطة ، فهي رسالة أبي يوسف (٣) . للرشيد ، وذلك عندما طلب الرشيد من أبي يوسف تأليف كتاب في الخراج ، فاهتبل أبو يوسف الفرصة ، وقدم لكتابه بمقدمة وعظيمة رائعة ، وعظ فيها الرشيد وعظاً بليغاً ، ووجهه لكل خير ، وحذره من كل شر .

(١) الشافعي - حياته وعصره ، ابوزهرة ص ٥٣ .
(٢) حلية الأولياء ٣٧٨١٦ - نقلًا عن : هارون الرشيد أمير الخلفاء ص ٣٧ .
(٣) هو : يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري ، صاحب أبي حنيفة وتلميذه ، وأول من نشر مذهبه ، كان من حفاظ الحديث ، ولد سنة ١١٣ ، وتوفي سنة ١٨٢ ، ولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد ، ومات في خلافته وهو على القضاء ، وهو أول من دعى قاضي القضاء ، له عدة مؤلفات أشهرها : الخراج .
انظر : مسألة الاحتجاج بالشافعي فيما أسند إليه والرد على الطاعنين بعظم جهلهم عليه ، الخطيب البغدادي ص ٨٧ هامش (١) تحقيق : خليل إبراهيم ملا خاطر - شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م .

حظى ابو يوسف بمنزلة رفيعة عند الرشيد ، فكان "ياكله ويحج معه عدلا على بعير - ويومه ويعلمه . ويدخل عليه راكبا بغلته فيستقبله الرشيد بالنشيد (جاءت بك معتجرا ببرده) وكانت تتقدم به المنزلة كلما تقدم به العمر وصلى عليه الرشيد عندما مات وأمر بدفنه فى مقابر قریش حيث دفن من بعده ولده الامين ثم زبيدة أم الامين " (١) .

ومع هذه المكانة العالية لم يتوان أبو يوسف فى نصح الخلفاء ، والوقوف منهم مواقف جادة حينما يرى منهم حيادا عن الحق ، أو وقوفا فى صفوف الجانرين ، ولأدل على ذلك من قوله للرشيد فى ختام مقدمة كتاب الخراج - رسالته :

" وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحت لك وبينته . فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه . فإني قد اجتهدت لك فى ذلك ولم ألك والمسلمين نصحا . ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه " . (٢) .

جاءت رسالة أبى يوسف لهارون الرشيد فى مقدمة كتاب الخراج . فاغنت الرسالة عن خطبة الكتاب ، ووقعت موقعا عظيما فى نفس هارون الرشيد ، وفى نفوس المسلمين جميعا ، لأنها كانت بمثابة الضوء الهادى الذى وضعه هذا الفقيه المخلص بين يدى هذا الخليفة الذى يتحرى العدل ليطبقه فى رعيته .

بدأ أبو يوسف رسالته بمقدمة دعا فيها لهارون الرشيد ، وذكر أسباب تأليف كتاب الخراج ، والإشادة بعدل هارون لطلبه تأليف مثل هذا الكتاب . قال أبو يوسف :

" أطل الله بقاء أمير المؤمنين ، أدام له العز فى تمام من النعمة ، ودوام من الكرامة وجعل ما أنعم به عليه موصولا بنعيم الآخرة الذى لا ينفد ولا يزول . ومرافقة النبى - صلى الله عليه وسلم - . إن أمير المؤمنين - أيداه الله تعالى - سألني أن أسع له كتابا جامعاً يعمل به فى جنائى الخراج ،

(١) أبو حنيفة ، للجندي ص ١٢٩ .

(٢) كتاب الخراج ، للقاضى أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم ص ٥٦ .

والعشور والصدقات ، والجوالى ، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به ، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته ، والصالح لأمرهم . وفق الله تعالى أمير المؤمنين ، وسدده وأعانه على ما تولى من ذلك ، وسلمه مما يخاف ويحذر ، وطلب أن أبين له ما سألنى عنه مما يريد العمل به ، وأفسره وأشرحه ن وقد فسرت ذلك وشرحته " (١) .

وبعد هذه المقدمة الهادئة ، يأخذ أبو يوسف فى إسداء النصيح لهارون الرشيد ، فيحثه على التمسك بالحق فى قيادة رعيته ، فى أسلوب وعظي قوى اللهجة ، ويرسم له طرق الخلاص ، ويحذره من الظلم وعواقبه ، ويخوفه من عاقبة الظلم يوم القيامة ، ويستخدم أسلوب الأمر والنهى والأغراء ، والتحذير ، ومزج نصائحه بآيات من القرآن الكريم ، وبأحاديث نبوية شريفة ، ليقع الكلام موقعه ، ويختتم هذه الفقرة الطويلة باستحضار مشهد القيامة وما فيه من خزي وندم ، يقول أبو يوسف فى هذه النصائح :

" يا أمير المؤمنين ، إن الله وله الحمد - قد قلذك أمرا عظيما : ثوابه أعظم الثواب ، وعقابه أشد العقاب . إلك أمر هذه الأمة . فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله وانت منك عليهم وإبتلاك بهم وولاك أمرهم ، وليس يلبث البنيان - إذا أسس على غير التقوى - أن ياتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه و أعان عليه . فلا تضيع ما قلذك إله من أمر هذه الأمة والرعية ، فإن القوة فى العمل بإذن الله . لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فإنك إن فعلت ذلك أضعت ، إن الأجل دون الأمل ، فبادر الأجل بالعمل ، فإنه لا عمل بعد الأجل . إن الرعاة مودون إلى ربهم ما يودى الراعي إلى ربه ، فأقم الحق فيما ولاك الله وقلذك ولو ساعة من نهار ، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعت به رعيته . ولا تنزع فتزيغ رعيته . وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب . وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للأخرة والآخر للدنيا ، فاختر أمر الأخرة على أمر الدنيا ؛ فإن الأخرة تبقى والدنيا تفتنى . وكن من خشية الله على حذر ،

واجعل الناس عندك فى امر الله سواء القريب والبعيد ، ولا تخف فى الله
لوسة لانم . و احذر فان الحذر بالقلب وليس باللسان ، واتق الله فانما التقوى
بالتوقى . ومن يتق الله يقه . واعمل لأجل مفوض ، وسبيل مسلك ،
وطريق مأخوذ ، وعمل محفوظ ، ومنهل موروذ . فان ذلك المورد الحق
والموقف الأعظم الذى تطير فيه القلوب ، وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك
قهرهم جبروته ، والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه ويخافون
عقوبته وكان ذلك قد كان . فكفى بالحسرة والندامة يومئذ فى ذلك الموقف
العظيم لمن علم ولم يعمل . يوم تنزل فيه الأقدام ، وتتغير فيه الألوان ،
ويطول فيه القيام ، ويشتد فيه الحساب . يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه :

(وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون)

وقال تعالى : (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين)

وقال تعالى : (ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين)

وقال تعالى : (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار)
وقال : (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) ، فبالها من عنرة
لا تقال . وبالحا من ندامة لا تنفع ، إنما هو اختلاف الليل والنهار : يلبثان كل
جديد . ويقربان كل بعيد ، وباتيان بكل موعود . ويجزى الله كل نفس بما
كسبت إن الله سريع الحساب . فأن الله فان البقاء قليل ، والخطب خطير ،
والدنيا هالكة وهالك من فيها ، والآخرة هى دار القرار . فلا تلق الله غدا
وانت سالك سبيل المعتدين ، فان ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم
ولا يدينهم بمنازلهم . وقد حذر الله فاحذر ، فانك لم تخلق عبثا ، ولن تترك
سدى . وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به ، فانظر ما الجواب .
واعلم أنه لن تزول غدا قدما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد
المسألة ، فقد قال - صلى الله عليه وسلم :

" لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن علمه ما عمل فيه
وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفق ، وعن جسده
فيم أبلاه " ، فاعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها ، فان ما عملت فأثبت
فهو عليك غدا يقرأ ، فاذكر كشف قناعك فيم بينك وبين الله فى مجمع
الأشهاد " (١) .

ويلج أبو يوسف على قضية العدل في الرعية ، وعدم تضییع الامانة ، فيخصص لها جزء آخر من رسالته ، يشتد فيه وعظ ، ويعلو صوته ، وتغلظ نغمة الأمر والنهي فيه ، ويحشد لها من سيء الصور ما يستطيع حشده ، ليخوف الخليفة من الجور والظلم ، ويحذره من الاستعانة بغير العلماء ، يقول في هذا الجزء القوي : " وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله ، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله . فانك أن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى ، وتعمى في عينيك وتتعمى رسومه ويضيق عليك رحبه ، وتتكبر منه ما تعرف ، وتعرف منه ما تنكر ، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج لها لا عليها ، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بأذن الله و أورده أماكن الحياة والنجاة ، فإذا ترك ذلك أضاعه ، وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه أضر ، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ووقاه الله أضعاف ماوفى له .

فاحذر أن تضيع رعيته فيستوفى ربحها حقها منك ، ويضيعك - بما أضعت أجرك ، و إنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم و إنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره ، وعليك ما ضيعت منه ، فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تنسى . ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يغفل عنك . ولا يضيع حظك من هذه الدنيا في هذه الأيام والليالي كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحا وتهليلا وتحميدا ، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم - نبي الرحمة و إمام الهدى - صلى الله عليه وسلم ، وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الأمر خلفاء في أرضه ، وجعل لهم نورا يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم ، ويبين ما اشتبه من الحقوق عليهم . وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود ورد الحقوق إلى أهلها بالتثبيت والأمر بالبين ، وإحياء السنن التي سننها القوم الصالحون أعظم موقعا ، فإن إحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت . وجور الراعي هلاك للرعية ، واستعانتة بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة" (١)

وقيل أن يختم رسالته بشكر نعمة الملك ، والحفاظ على أسباب دوامها ،
بالتقرب إلى الله بعمل الطاعات ، و الابتعاد عن المعاصي التي تكن سببا في
زوال الملك وذل الملوك ، ويدعو له بحفظ الله له ، يقول :
" فاستم ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها والتمس
الزيادة فيها بالشكر عليها ، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز :
لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) وليس شيء أحب إلى
الله من الإصلاح ، ولا أبغض إليه من الفساد ، والعمل بالمعاصي كفر النعم .
وقل من كفر من قوم قط النعمة ثم لم يفرعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم
وسلط الله عليهم عدوهم . وإنى أسأل الله يا أمير المؤمنين الذى من عليك
بمعرفته فيما أولاك أن لا يهلكك فى شيء من أمرك إلى نفسك ، وأن يتولى
منك ماتولى من أوليائه وأحبائه . فإنه ولى ذلك والمرغوب إليه فيه " (١) .

ويختم أبويوسف رسالته بهذا المزج العجيب بين القسوة واللين فى النصيحة
التي سادت الرسالة . فيوجه هارون لما فيها من منافع عظيمة ، ويأمره
بحفظها . والعمل بما فيها لما فى ذلك من صلاح الرعية ، وكثرة الخراج
الذى سن الفقيه تبينه له ورسم طريقه الصحيح من الكتاب والسنة ، ولم
ينس الفقيه ختم الرسالة بالدعاء لهارون بالتوفيق والسداد ،
يقول أبو يوسف :

" وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحت لك وبينته ، فتفقهه وتدبره وردد
قراءته حتى تحفظه ، فإنى قد اجتهدت لك فى ذلك ولم ألك والمسلمين
نصحا ، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه . وإنى لأرجو - أن عملت بما
فيه من البيان - أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد ،
ويصلح لك رعيته ، فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ، ورفع الظلم عنهم ،
والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم ، وكتبت لك أحاديث حسنة ، فيها
ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه مما تريد العمل به إن شاء الله . فوفئك
الله لما يرضيه عنك ، وأصلح بك ، وعلى يدك " (٢) .

(١) . (٢) كتاب الخراج ص ٦ .

تلك رسالة فقيه عامل ، مخلص في نصحه لخليفة يبحث عن العدل ، ويتحرى العمل بكتاب الله ، وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وقد جاءت الرسالة موافقة لموضوعها وسبب إنشائها ، فالسبب هو وضع كتاب في الخراج ، فأرشد الكاتب خليفته لأمور مهمة قبل وضع أسس الخراج ، وأعلمه بأن العدل أساس الملك ، وسبب في زيادة الخراج .

ومن الملاحظ تركيز أبي يوسف على قضية العدل في الرعية ، وإلحاحه عليها إلحاحا شديدا ، وكأنه تأثر في هذا الجانب برسالة الحسن البصري التي وجهها لعمر بن عبد العزيز في صفة الإمام العادل ، وتبقى روح أبي يوسف التي سرت في رسالته ، فأحسسنا بروح الفقه والسنة في كل جملة ومعنى من جمل ومعاني الرسالة . كما لا ننسى تلك الجراة التي تناول بها رسالته في قسوة الألفاظ ، وخشونة الأوامر والنواهي - مع مكانة أبي يوسف من هارون - مما يؤكد صدق الرجل وإخلاصه في نصحه وتوجيهه ، وأنه - كما قال في الختام - لا يرجو بذلك سوى رضا الله تعالى .

وبعد أن أنهى أبو يوسف مقدمة كتاب الخراج في هذه الرسالة ، وأتبعها بذكر جملة من الأحاديث النبوية في الترغيب والتحضيض ، وذكر كثيرا من مواقف الصحابة والتابعين ؛ ليؤكد لهارون على قضية العدل في الرعية . والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وعدم الغضب من النقد والمواجهة التي يرجى بها وجه الله ، استشهد لذلك ، بمواقف لعمر بن الخطاب و أبي بكر - رضي الله عنهما - ومواقف لعمر بن عبد العزيز ، ثم أخذ في ذكر أبواب الكتاب ، فكان أولها : باب في قسمة الغنائم ، وآخرها :

باب في قتال أهل الشرك وأهل البغي وكيف يدعون . وقد كان هذا الكتاب " رسالة إلى الرشيد في أحكام الأموال ، ألفها على طلب منه ، ومقدمتها تدل على أنه لم يكن يحابي أحدا في الحق ، ولم يولف أحد من أهل طبقته مثيل هذا الكتاب ، بل لو قلنا : لم يولف مثله لم تكن مغايب ، فمن طالع الكتاب وقارنه بالكتب التي ألفت في هذا الباب اعترف بذلك (١) .

(١) هارون الرشيد أمير الخلفاء ص ١٥٢ .

فكتاب الخراج إذان " رسالة كتبها أبو يوسف إلى الرشيد في مالية الدولة فبين المصادر المالية للدولة ، وأبواب الدخل في تفصيل محكم دقيق يعتمد فيه على القرآن ، والمأثور عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وفتاوى الصحابة ... والكتاب كله من وضع أبي يوسف لم يجعله رواية لغيره من الفقهاء وكتاب الخراج في بابيه الفقهي ثروة فقهية ليس لها مثل في العصر الذي كتب فيه " (١) .

* و نلتقي بعد ذلك بآخر رسالة في هذا العصر - العباسي - وأطولها وأشملها . وهي رسالة الإمام مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة ، وتوجه بها إلى هارون الرشيد ناصحاً ومرشداً ، وموجهاً له إلى طريق الخير والرشاد ، ومنبهاً له لما فيه صلاح نفسه وصلاح رعيته ، ومحذراً له من الوقوع في المعاصي والمنكرات . واشتملت الرسالة على المواعظة والحكمة والدعوة إلى صالح الأعمال وحسن الأخلاق ، وتضمنت أحكاماً فقهية عديدة معززة بالأدلة من القرآن والسنة . وبدأت بمقدمة ، ثم صلب الموضوع . وانتهت بخاتمة .

جاءت الرسالة في كتاب : جمهرة رسائل العرب في الجزء الرابع لأحمد زكي صفوت ، وشغلت الرسالة من ص ٤٠٣ إلى ص ٤٥٨ أي وقعت في ست وعشرين صحيفة ، وأشار أحمد زكي صفوت إلى أن الرسالة طبعت بالمطبعة الأميرية في سنة ١٣١١ هـ ، كما طبعت حديثاً بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

بدأ الإمام رسالته بمقدمة جيدة ، حمد الله فيها وصلى وسلم على رسوله الكريم ، وذكر فيها قيمة الرسالة ونبيه هارون الرشيد إلى الاهتمام بها ، والأخذ بما فيها ؛ لينال سعادة الدارين ، قال الإمام مالك :

(١) أبو حنيفة حياته وعصره آراءه وفقهه - الإمام محمد أبو زهرة ص ١٧٤ وبعدها - دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩٧ م .

" الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . أما بعد : فإني كتبت إليك بكتاب لم آلك فيه رشداً ، ولم ادخرك فيه نصحا ، تحميذا لله ، وأدبا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتدبره بعقلك ، وردد فيه بصرك ، وأرعه سمعك ، ثم اعقله بقلبك ، وأحضره فهمك ، ولا تغيب عنه ذهنك ، فإن فيه الفضل في الدنيا ، وحسن ثواب الله تعالى في الآخرة " (١) .

وهذه الوصية تشبه وصية أبي يوسف التي صدر بها كتاب الخراج ، غير أن أبا يوسف جعل وصيته في ختام رسالته لهارون الرشيد ، بينما قدم بها الإمام مالك بين يدي رسالته ، والتقديم أفضل ؛ لينتبه السامع والقارئ للرسالة لما فيها من مواعظ وإرشادات . وهذا يؤكد أيضا اتفاق الفقهاء في روح الإيمان ، وصدق الوعظ ، وصفاء القلب ، وطلب رضا الله سبحانه وتعالى في كل ما يصدر عنهم من فتاوى وأحكام .

وبعد المقدمة أخذ في التوجيه والنصح ، فذكره بالموت . وخوفه من العذاب ، ورسَّم له عمل اليوم والليلة وفق ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - وذكره بواجبه تجاه الأمة ، ونفَّره من سوء الأخلاق ، وحثه على عمل الخير فقال :

" وإياك والكبر والزهو ، فإن الله عز وجل لا يحبهما ... احذر بطانة السوء وأهل الردى على نفسك اتق كثرة الضحك ، فإنه يدعو إلى السفه ... اترك من أعمال السر ما لا يحسن بك أن تعمله في العلانية اتق أهل الفحش ، ومجالسة أهل الردى ، أنصف الناس من نفسك ولا تستطل عليهم ... لتكن يدك العليا على كل من خالطت ... إياك والرياء ، فإنه بلغنى أنه لا يصعد عمل المرأى إلى الله عز وجل ، ولا يركبه عنده ارحم الناس برحمك الله بر والدك وخصهما منك بالدعاء في كل صلاة وأكثر لهما الاستغفار ، وابدأ بنفسك قبلهما احترس ممن يقرب إليك بالنميمة ، ويبلغ الكلام عن الناس إياك وظلم الضعيف ومن لا يستعين عليك إلا بالله لا تغبرن أظفارك بالحناء ولا يديك إذا دخلت الحمام ، فإنه ليس من سيمى أهل الفضل ولا تحلف بالطلاق أو لا بالعناق ، فإنها من أيمان الفساق

(١) جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهية ، أحمد زكي صفوت ٤ / ٤٠٣ - المكتبة العلمية بيروت لبنان (ب . ت) .

لاتذهبن في مدهن ذهب ولافضة ، ولا تستجمر في مجامر الذهب والفضة
لاتشفع فيمن وجب عليه حد من حدود الله إذا انتهى إلى الإمام ولاتحل دونه
.. ولا بأس أن تشفع قبل ذلك إذا عدت مريضا فأخف العيادة ، وأقل اللبث
.... لاتلعب بالنرد ، ولاتحلل أزارك ولاتجرد ولاتحذف " (١) .

ومن الملاحظ في هذه الرسالة ، أن الإمام مالك أكثر من الوعظ ، ونوع في
هذه المواعظ ، فكان منها السياسي ، والخلقي ، والسلوكي ، والتربوي . كما
يلاحظ أنه كان يتبع كل وصية أو موعظة بدليلها من الكتاب أو السنة - وإن
كانت أدلة السنة هي الغالبة - مما يكد الإخلاص في النصح وربط الرسالة
وما فيها بالدين وعلومه . وختم الإمام مالك رسالته بخاتمة رائعة جاءت
بمثابة الثمرة المرجوة من الرسالة ، وكانت نتيجة مترتبة على العمل
بالمواعظ والتوجيهات ، فقال :

" واعلم - رحمك الله - أن الله تعالى خصك من مواعظي بما نصحتك .
وانتهيت إليك منه ، أرجو أن يكون سعادة لك وسببا إلى الجنة ، فليكن منك
فيما كتبت إليك من القيام بأمر الله تعالى واتباع ما هو أهله ما ترجو به
القربة عند الله تعالى ، ولايكن ذلك مما تظلف به عنه نفسك ، وتعاهدها
بالأخذ والتأديب عليه إن شاء الله حتى توقفها على الذي لا ينبغي لك التقصير بها
عنه إن شاء الله تعالى والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب " (٢) .

وكما حظي أبو يوسف بمكانة عالية عند الرشيد ، فإن الإمام مالك كان أرفع
مكانة عنده ، لأسباب كثيرة ، منها : فقهه وورعه ، وتلمذة الرشيد على يديه
، وحب الرشيد للعلم والعلماء ورحيله لطلب العلم ، فقد قال القاضي الفاضل
في بعض رسائله : " ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد ،
فاته رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله
وقد ألح المهدي على الإمام مالك أن يسعى إلى قصده ليعلم ابنه موسى
وهارون ، فقال الإمام مالك :

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٤٠٦ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٤ / ٤٢٨ .

لا يا أمير المؤمنين ، العلم يوتى ولا يأتى ، واضطر المهدي (خليفة المسلمين) أن يبعث ولديه موسى وهارون إلى الإمام مالك ليتلقيا العلم من إمام دار الهجرة فكانا يقفان على المنزل ، فيدقان الباب والريح تضرب وجهيهما بتراب العقيق ، حتى يأتي الإذن ، فيسرعان بالدخول " (١) .

(١) هارون الرشيد ١٦٢ ، ١٦٣ .

المبحث الثانى

الجوانب الفنية فى رسائل الفقهاء والزهاد

حظيت رسائل الفقهاء والزهاد بجوانب فنية متعددة ، وهى فى معظم جوانبها تتفق مع ما وضعه النقاد لأصول هذا الفن وأسسها ، مما يؤكد على تمكن الكتاب من فقهاء وزهاد . من ناصية البيان ، ومعرفتهم بأصول النثر الفنى مع تمتعهم بمعرفة الفقه والأحكام . وساتناول بعض الجوانب الفنية التى تجمع رسائل الفقهاء والزهاد بشىء من التفصيل .

البناء الفنى

أشار الكتاب والنقاد إلى البناء الفنى الذى يجب أن تكون عليه الرسالة الفنية . وجمعه فى ثلاثة أجزاء : هى البدء (المقدمة) ، والعرض (صلب الموضوع) والخاتمة (ختام الرسالة) . ونحن قد صنفنا الرسائل التى ندرسها تحت موضوع الرسائل الوعظية : لأن معظمها يقوم على الوعظ والتوجيه . والأمر والنهي .

كانت الرسائل فى القديم تبدأ بالبسملة وحمد الله والثناء عليه ، ثم يدخل الكاتب فى صلب الموضوع وينهى رسالته بالسلام ، وقد تبدأ بقول الكاتب : أما بعد . وقد يدخل الكاتب فى الموضوع مباشرة ، ولا حظنا فى رسائل الفقهاء والزهاد تنوعا واختلافا فى البناء الفنى ، أى جاءت الرسائل على الأشكال الفنية القديمة المعروفة ، فنرى رسالة أنس بن مالك - رضى الله عنه - تبدأ بقوله :

من أنس بن مالك خادم رسول الله إلى عبد الملك بن مروان ، أما بعد - ثم يوجز فى عرض رسالته - وهى الشكوى من الحجاج ويختمها بقوله : والسلام عليك ورحمة الله .

ونلتقى بالحسن البصرى ، وهو يوجه عدة رسائل إلى عمر بن عبد العزيز ، فيبدأ رسائله بمقدمات مختلفة ، فنراه يقول : أما بعد يا أمير المؤمنين ، ويقول مرة : اعلم يا أمير المؤمنين ، ثم يدخل فى عرض الموضوع وبسطه ، ويختم رسائله بخاتمات مختلفة ، فمرة يقول : والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، ومرة يختمها بموعظة من مواعظه فيقول :

" واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز من حرص على السلامة في دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فادخل الجنة " (١) .

ونراه - على قلة - يختتم رسالته ببيت من الشعر ، فيقول :
واني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم :

فان تنج من ذي عزيمة وإلا فاني لا إخالك ناجيا .

ويختتم بعض الفقهاء رسالته بأية قرآنية ، كما فعل سالم بن عبد الله ، في رسالته لعمر بن عبد العزيز فقال : **وقل كما قال العبد الصالح : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أتياكم منه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)** .

ويختلف الأمر في العصر العباسي ، فتبدأ أحيانا بالبسملة ، كما جاء على لسان الإمام أحمد بن حنبل في رسالته للمتوكل ، فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أحسن الله عاقبتك أبا الحسن في الأمور كلها . ودفع عنك مكاره الدنيا والآخرة برحمته - ثم دخل في الرد على الموضوع الفقهي والعقدي الذي طلب منه الحديث فيه وينتهي رسالته بنهاية رأيه في هذا الموضوع ، فيقول : **ولقد روي عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله ، وهو غير مخلوق ، وهو الذي أذهب إليه فاما غير ذلك فان الكلام فيه غير محمود .**

ويبدأ أبو يوسف رسالته - كتابه - بالدعاء ، فيقول : **أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، وأدام له العز في تمام من النعمة ، ودوام من الكرامة ، وجعل ما أنعم به عليه موصولا بنعيم الآخرة الذي لا ينفد ولا يزول ، ومرافقة النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم يختتم الرسالة بالدعاء له أيضا فيقول بعد أن أوصاه بالنظر فيها والعمل بها ، : **فوفقك الله لما يرضيه عنك ، وأصلح بك ، وعلى يدك .****

وقد جاء هذا الاضطراب من طول الرسالة - الكتاب - واختلاف أبوابها الفقهية التي طلبها منه هارون الرشيد ، فتأنت الرسالة مقدمة للموضوع الذي أراد الحديث فيه وهو (الخراج) .

وتأتى رسالة الإمام مالك ، فنجد - يبدوها بالتحديد القصير ، فيقول :
 الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا
 محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد .
 ثم يتلو ذلك بذكر قيمة رسالته وسبب تأليفها ، ونصح هارون بالنظر فيها
 والعمل بما جاء بها ، ثم يدخل فى صلب الرسالة - وهى عبارة عن مجموعة
 من الوصايا والنصائح المتعددة .
 ويختتم رسالته بخاتمة طويلة عبارة عن نصيحة موجزة لهارون يحثه فيها
 على العمل بما جاء فى رسالته .
 وهكذا تفاوت الفقهاء والزهاد فى البناء الفنى لرسائلهم ، وتفننوا فى هذا
 الجانب ، فجاء معظمه على المؤلف لدى العرب القدامى ، وجاء بعضه
 جديدا اقتضته ظروف الرسائل أو الموضوعات أو كتابها .
 وأما من حيث الطول والقصر ، فقد تفاوتت الرسائل أيضا ، فجاء منها
 الطويل جدا ، كرسالة الإمام مالك ، ورسالة أبى يوسف - كتاب الخراج
 وجاء منها المتوسط ، كرسالة الحسن البصرى فى صفة الإمام العادل ،
 ورسالة سالم بن عبد الله لعمر بن عبد العزيز ، وجاء منها القصير جدا ،
 كرسالة الحسن البصرى لعمر بن عبد العزيز ، حيث كتب له :
 " أما بعد فكانك بالدنيا لم تكن وبالأخرة لم تزل " (١) .

اللغة والأسلوب

جاءت لغة الرسائل واضحة ، سهلة ، معبرة عن معانيها التى قصدتها
 أصحابها ، وابتعد الكتاب عن الغريب الحوشى ، ولم يتطرقوا إلى الصعب
 منها ولا الوعر : وذلك بسبب سهولة الموضوعات التى طرّفوها ، فهى
 نصائح وتوجيهات سياسية أو تربوية ، أو سلوكية دينية - وكل هذه
 الموضوعات لا تحتاج إلى ألفاظ غريبة أو مهجورة ، وإنما يناسبها ما وضح
 وسهل من الألفاظ ، انظر مثلا إلى ألفاظ هذه الرسالة التى كتبها الحسن
 البصرى لعمر بن عبد العزيز ، وقد طلب منه ذلك وأمره بالإيجاز ، فقال الحسن :
 وهى أشبه ما تكون بالتوقيعات التى تحمل المعانى الكثيرة فى ألفاظها القليلة .

(١) البيان والتبيين ٢ / ٤٣٦ . تحقيق حسن السندوبى - دار إحياء العلوم - بيروت الطبعة الأولى
 ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م .

"أما بعد يا أمير المؤمنين ، فكان الذى كان لم يكن ، وكان الذى هو كان قد نزل . واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر وإن أذاقك تعجيل مرارته ، فلنعم ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته . وإن الهوى وإن أذاقك الطعم حلاوته . فلبنس ما أعقبك من مرارته وسوء عاقبته . واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز من حرص على السلامة فى دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فادخل الجنة " (١) .

فأى سلاسة وسهولة وعذوبة تحملها تلك الألفاظ ؟ إن المتأمل فى هذه الرسالة لا يصل سمعه لفظ خشن . ولا يؤذى بصره لفظ وعر أو مهجور ، وإنما جاءت ألفاظها غاية فى الوضوح والسهولة ، ودلت على المعانى التى قصدها الكاتب - الوعظ - فى سلاسة ويسر . ومثال آخر على تلك السهولة نجده فى قول الإمام مالك : أفش الصدقة فإنها تدفع ميتة السوء ، وليكن ذلك من أطيب مالك ، فإن الله تعالى لا يقبل إلا الطيب ... إذا نزلت بك كربة من كرب الدنيا فليكن مفزعك فيها إلى الله عز وجل حين تنزل بك . كما نلمح هذه السهولة ، وهذا الوضوح فى رسالة أبى يوسف - مقدمة كتاب الخراج - حيث يقول لهارون الرشيد : وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للأخرة والآخر للدنيا ، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى . وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء القريب والبعيد ، ولا تخف فى الله لومة لائم .

كثرة الألفاظ الدينية

كثرت الألفاظ الدينية فى هذه الرسائل كثرة واضحة ، فبرزت ألفاظ النعيم ، العذاب ، الخوف ، الرجاء ، التقوى ، الحذر ، الدنيا ، الآخرة ، الجنة ، النار ، وغيرها . كما كثر ذكر لفظ الجلالة (الله) ، وكثرة صفات الله - عز وجل - فى هذه الرسائل .

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٩٧ .

ونلاحظ كثرة الألفاظ الفقهيّة مثل : الحلال ، الحرام ، المباح ، العمل ، الولاية ، تضييع الحقوق ، الغبن ، الخسارة ، النية ، الأخذ بالظنة ، التفرير ، جر المنفعة ، الزكاة ، الصلاة ، الصوم ، السفه ، الحدود ، القصاص ، وغيرها .

وهذه الألفاظ وقعت موقعها . وعبرت عن معانيها أبلغ تعبير ولم نجد لفظة نابية أو ساقطة أو سوقية ؛ مما يدل على علو كعب الفقهاء وتمكنهم في جانب اللغة .

أما الأساليب :

فكانت صحيحة قوية ، والتراكيب متينة ، عربية فصيحة ، لاتعقيد فيها ولا غموض ؛ لأن غموض الأسلوب يتبع غموض اللفظ ، ووضوح اللفظ يتبعه وضوح الأسلوب ، فجاءت الأساليب تبعاً للألفاظ واضحة سهلة ، لاغموض فيها ولا التواء .

وإذا أردنا التمثيل لذلك كان من السهل الميسور ، ولنضرب مثلاً بقول أبي يوسف :

" فاقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته ولا تزغ فتزيع رعيته " .
وقول الحسن البصري : " فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد انتمته سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرذ العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله " .

وهناك عدة جوانب تتصل بالأساليب ، نجملها فيما يأتي :

١ - المزاجية بين الأساليب الخبرية والإنشائية ، مع غلبة الأساليب الإنشائية ، فكثرت أساليب الأمر والنهي ، والدعاء ، والنداء والشرط وغيرها من الأساليب الإنشائية ، وهذه الأساليب تتفق وموضوعات الوعد ، فهي مبنية على الأمر والنهي ، والنداء ، والدعاء ، والترجي والتمنى وغيرها .

٢ - ظاهرة التكرار في بعض الأساليب ، كتكرار جملة " أمير المؤمنين " في بداية كل مقطع من مقاطع الرسالة ، فنجد الحسن البصري يكررها في رسالة واحدة خمس عشرة مرة في رسالة الإمام العدل ، وكتكرار أسلوب الأمر في الرسالة الواحدة في بدايته كل مقطع ، وكذلك أسلوب النهي وهي كثيرة في رسائل الفقهاء .

٣ - كثرة التوكيد وتكراره ، كما فى رسالة سالم بن عبد الله فى قوله : " ثم انك يا عمر بن عبد العزيز ثم انك قد وليت اليوم أمرا عظيما وإنما قدر العون بقدر النية .
٤ - شيوخ أسلوب التحذير والإغراء ، كما فى رسالة سالم السابقة ، فى قوله : " المال المال يا عمر - الدم الدم يا عمر واحذر من بعثت من عمالك ، الله الله يا عمر .. " .
وقول أبى يوسف : " الله الله فإن البقاء قليل والخطب خطير " .

المحسنات البديعية :

ومما يتصل بدراسة الأسلوب ، الحديث عن المحسنات البديعية ودورها فى إفساد المعنى أو تجميله ، ونلاحظ شيوخ بعض الألوان البديعية فى هذه الرسائل لكن دون إفساد للمعنى ، حيث جاء معظمها عفويا وبغير كد ذهن أو بغرض الزينة .
فمن هذه الألوان : المقابلة ، فى قول الحسن البصرى : والدنيا وإيم الله يا أمير المؤمنين حلم ، والآخرة يقظة ، وإن أذاقك تعجيل مرارته ، فلنعم ما أعقبك من طيب حلاوته .
وقد عرف الحسن البصرى بهذا اللون ، وسماه النقاد (المزاوجة) . يقول الدكتور / شوقي ضيف تعليقا على رسالة الحسن فى الإمام العادل :
" والحسن فى هذه الرسالة يستخدم نفس أسلوب خطبته الذى يقوم على الازدواج وتزيين المعانى بالصورة حتى تتمكن فى النفس . وكان يزيدها تمكينا بمقابلاته وطباقاته الكثيرة " (١) .

وقول أبى يوسف : فإن الآخرة تبغى والدنيا تفنى .
* كما نلاحظ كثرة الطباق والجناس كثرة واضحة فى كثير من هذه الرسائل ، كقول الحسن البصرى : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل حائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصف كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .
فلا يخفى ما فى هذا الطباق المتلاحق من ترسيخ المعنى فى ذهن وجلاء الصورة فى النفس .

(١) تاريخ الأدب العربى - العصر - الإسلامية د . شوقي ص ٤٦٣ - دار المعارف بمصر - الطبعة العشرون ٢٠٠٢ م .

وكقول أبي يوسف : وأتق الله فإنما التقوى بالتقوى ، ومن يتق الله يقه .
فالتلاعب بالجناس المشتق واستخدامه في ترسيخ المعنى واضح ، وهو
يؤكد بهذا المحسن على التمسك بالتقوى والتنفيذ من الجور .
كقوله : أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما
استرعاك الله ، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله .
* وأما السجع ، فلم يهتم به كثير من الفقهاء والزهاد ، حتى إن كثيرا منهم
لم يوردوه في رسائلهم ، كسالم بن عبد الله الذي خلت رسالته من السجع -
مع طولها - وانساب أسلوياها انسيابا ، وكذلك الإمام أحمد في رسالته
للمتوكل عن رايه في خلق القرآن .
وجاء السجع بقلّة في رسالة ابن السماك لهارون الرشيد في تعزيته لولده .
في قوله :

" أما هو فقد خنص من الكدر ، وبقيت أنت معلقا بالخطر " فالاتفاق في
نهاية الفواصل في حرف الراء أعطى الجمل جرسا موسيقيا عذبا ، مع اتفاق
الفقرات في الطول فزاد المعنى بهاء وثبته في ذهن المتلقى .

ومن استخدام السجع استخداما بديعا قول الحسن البصري :

" فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ،
لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل
الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون في
مؤمن إلا ولأزمة ، فتبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ،
وأثقالا مع أثقالك " .

بهذا الجرس الصوتي غير الرتيب عبر الحسن البصري عن معانيه ، فاختار
فاصلة اللام في تنسيق الجمل الأولى ، ثم غير إلى فاصلة النون مع اتساق
في الجمل وتناغم في الطول والقصر ، ثم فصل بجمله خالية من السجع ،
ليختم فقرته بفاصلة الكاف ، وكأنه يذكرنا في هذه المقطوعة بشعر
المقطعات الذي تتغير قافيته في كل مقطعة مع تماسك في المعنى ، ووحدة
في الموضوع ، وتلك براعة الكاتب وقد يبدع الكاتب في إيراد جملة وتناسقها
من غير التزام السجع ، كقول الإمام مالك :

" فاحذر على نفسك حذرا غير تغيير ، وبادر بنفسك قبل أن تسبق إليها ، وما تخاف الحسرة منه عند نزول الموت ، وخاصم نفسك على مهل ، وانت تقدر بأذن الله على جر المنفعة إليها ، وسرف الحجة عنها ، قبل أن يتولى الله حسابها ، ثم لا تقدر على صرف المكروه عنها " .

وتقول أبى يوسف : " واعمل لأجل مفضوص ، وسبيل مسلوك ، وطريق مأخوذ ، وعمل محفوظ ، ومنهل مورود " .

فالامام مالك وازن بين جملة طولا وقصرا من غير التزام فواصل معينة ، فخلت قطعته من الموسيقى الرتيبة ، ومع ذلك فقد عبر عن معانيه تعبيرا جيدا : وأما أبو يوسف فسلك سبيلا آخر كان فيه أقدر من الإمام مالك - مع خلو جملة من السجع - فوازن بين جملة موازنة دقيقة ، واختار لها موسيقى رتيبة تمثلت في إيراد اسم المفعول وختم الجمل به فكان أوقع من السجع المألوف ، ولم يزد عن كلمتين في كل جملة أولاهما موصوف وأخرهما صفة ، فجاءت الموسيقى عذبة ، وأبدع في تثبيت المعنى في ذهن المتلقى ، وأوحى إليه بالتمسك بالعمل لما دعا إليه في جملة .

* الأفكار والمعاني .

اتسمت أفكار الرسائل ومعانيها بالوضوح والتمسك ، والترابط ، فجاء المعنى تلو المعنى يشد أزره ، ويحكم عراه حتى تتضح الصورة كاملة في ذهن المتلقى ، وتسلسلت الأفكار تسلسلا منطقيا في كثير من الرسائل ، فكان الكاتب يبدأ فكرته بمقدمة ثم يتلوها بتفصيل يبدد إجمالها ، ويوضح أطرافها ، بدأ أبو يوسف رسالته مجملة فقال : " إن أمير المؤمنين سألني أن أضع له كتابا جامعا يعمل به في جباية الخراج وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن الرعية والصالح لأمرهم " .

وأخذ بعد ذلك في تفصيل ما أجمله من هذا المعاني ، فبين له ثواب العدل ، وعقوبة الظلم في أساليب تحذيرية ملينة بالأوامر والنواهي حتى أنهى رسالته . وكان سالم بن عبد الله مخالفا لهذا القياس ، فبدأ بالتفصيل ، فذكر عمر بن عبد العزيز وخوفه من الظلم ، ورسم له طريق العدل ، ثم ختم رسالته بإجمال هذه المعاني في إجابة طلبه عن كتب أرادها منه ، فقال :

" وأنا ارجو ان عملت على النحو الذى عمل به عمر بعد الذى رايت وبلوت من الظلم ان تكون أفضل عند الله منزلة من عمر " .

واتسمت المعانى بعدة سمات ، نجلها فيما يلى :

١ - الأخذ من المعانى القرآنية ، والأحاديث النبوية .

قال أبو يوسف :

" وليس يلبث البنيان - إذا أسس على غير التقوى - أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه " .

فالمعنى مأخوذ من قوله تعالى :

" فاتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم " .

وقوله :

" فانك لم تخلق عبثا ، ولن تترك سدى " نظر فيه إلى قوله تعالى : " أفحسبتم أنما خلقتكم عبثا ، وقوله تعالى :

" أحيى الإنسان أن يترك سدى " .

وقول الحسن :

" وأذكر يا أمير المؤمنين إذا بعث ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها " .

أخذ هذه المعانى من الآيات القرآنية .

وقوله :

" وقد عنت الوجوه للحى القيوم " .

فالحسن لم يكتف بأخذ المعنى ، وإنما كان يقتبس أجزاء من الآيات ليدخلها فى معانيه ، فتزيدها تمكنا من النفس .

ومن الأخذ من الأحاديث ، قول أبى يوسف :

" فاحذر أن تضع رعيك فيستوفى ربهها حقا منك ويضيعك بما أضعت أجرك " .

فإنه مأخوذ من معنى حديث :

" إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ ذلك أم ضيع " .

٢ - كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

وهذا واضح فى رسالة الإمام أحمد ؛ لأن موضوعها ومناسبتها يقتضيان ذلك ، فهى رد على موضوع دينى عقدى . وأما بقية الكتاب من الفقهاء ، فقد وشحوا رسائلهم بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، فعل ذلك سالم بن

عبد الله في وسط رسالته وفي ختامها ، فذكر آيتين من كتاب الله جاءتا في موقعهما من الاستشهاد ، كانت الأولى تذكير العمر بفناء الدنيا ، فذكر قوله تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) وكانت الثانية تذكيرا له في ختام الرسالة بالعمل الصالح وابتغاء الثواب من الله تعالى فذكر قوله تعالى : " وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت عليه توكلت وإليه أنيب " .

وذكر أبو يوسف كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في مقدمة الكتاب الذي درسناه ، وزاد الأمر بعد ذلك في حديثه عن الخراج وأبواب الكتاب يستشهد بالقرآن والسنة وأراء الفقهاء .

وأما الإمام مالك ، فلم يترك نصيحة من نصائحه الكثيرة - أمر أو نهى - إلا وأتبعه بحديث من الأحاديث النبوية أو آية قرآنية فكان يقول بعد كل نصيحة : بلغني عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذا ، ويذكر الحديث ، وربما يذكر ما فيه من وجه الدلالة ، وكان أحيانا يذكر وجه الاستدلال ببعض الآيات القرآنية ؛ وإنما الغالب عليه ذكر الأحاديث ، وأرى ذلك بسبب تأثره بالموطأ الذي ألفه وجمع فيه كثيرا من أحاديث رسول الله ، فأحب أن يذيعها في تلك الرسالة الطويلة . قال الإمام مالك :

" أعن المظلوم ، وانصره ما استطعت ، وخذ على يد الظالم ، وادفعه عن ظلمه ، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام " .

وقال الإمام مالك :

" أقبل عذر من اعتذر إليك ، ورجع عما كرهت ، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يعذره ، كان عليه مثل وزر صاحب مكس " .

وقال مالك :

" أرحم الناس يرحمك الله ، بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من لا يرحم الناس لا يرحمه الله " . أحبب طاعة الله يحبك الله ويحببك إلى خلقه ، قال عز وجل لنبيه :

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال عليه الصلاة والسلام :
" إن الله جعل قرة عيني في السجود " وقال بعض العلماء : ما أسر عبد قط
سريرة خير ألا ألبسه الله رداها ، ولا أسر سريرة شر قط إلا ألبسه الله
رداءها " .

وسار الإمام مالك على هذا السبيل قبل خاتمة رسالته التي ختمها بنصيحة
هارون بتعهد الرسالة وفهم ما فيها ، والعمل بما فيها .

٣ - خلو الرسائل من الشعر .

الرسائل واسطة العقد بين الشعر والنثر ، ويجوز إيرادها شعرا ، أو الموازنة
فيها بين الشعر والنثر أو على أقل تقدير الاستشهاد فيها بالشعر . ومع كل
هذا فقد خلت جميع الرسائل التي درسناها من الشعر اللهم إلا من بيت
واحد ورد في نهاية رسالة للحسن ، وأشرنا إليه قبل ذلك .

ولعل السبب في ذلك اهتمام الفقهاء والزهاد بما في رسائلهم من عظيم
المعاني ، فانشغلوا عن الشعر بما هو أدل وأعظم لمعانيهم ، فاستشهدوا
بالقرآن والسنة ؛ لأن الرسائل في معرض الحديث عن أمور الدين .

وأريد أن أنبه إلى شيء مهم وهو صدق أصحاب الرسائل فيما كتبوا ،
ووجهوا ، فجاءت كتاباتهم مؤثرة ؛ لصدقهم وإخلاصهم ، وقد بدا ذلك الأثر
فيمن وجهت إليه أولا ، فرأينا بكاء عمر بن عبد العزيز ونحيبه إثر سماع
رسالة للحسن ، ورأينا تأثير الرشيد بكلام الفقهاء والزهاد .

تحدث الأستاذ / أبو الحسن الندوي عن أسباب خلود الأعمال الأدبية فذكر
منها الصدق والإخلاص والإيمان بالعمل والفكرة ، ثم تطرق إلى سبب نفسي
رئيسي فقال :

" وهناك شيء آخر وهو أن الإيمان بصفاء النفس والاشتغال بالله
والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء حسى ولطافة نفس وعدوية
روح ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة واقتداراً على التعبير البليغ ، فتأتي كتابته
كأنها قطعة من نفس صاحبه وصورة لروحه ، خفيفة على النفس مشرقة
الديباجة لطيفة السبك ، بارعة في التصوير ، لذلك كان من الأدب الصوفي

ومن كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها وقولها على مر العصور والأجيال ، وتري من ذلك نماذج في كلام السادة : الحسن البصري ، وابن السماك ، والفضيل بن عياض تعد من محاسن العربية " (١) .

*الصور والأخيلة .

استعان الفقهاء والزهاد بالتصوير في تثبيت المعاني ، وتوضيح الأفكار ، واستخدموا وسائل التصوير المختلفة ، وكان أبرزها التشبيه والاستعارة ، والكناية . فاستخدم الحسن البصري التشبيه بكثرة في رسائله استخداما بديعا ، حيث لم يكتف بإيراد أركان التشبيه ؛ بل وسع الصورة التشبيهية بتفصيل وجه الشبه وذكر الأسباب التي من أجلها أورد التشبيه تحسينا وتقبيحا ، فوقعت تشبيهاته موقعها البلاغي .

يقول في رسالة الإمام العادل :
" والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر " .

فلم يكتف بتشبيه الإمام بالراعي الشفيق ؛ وإنما أورد من صفات الراعي ما يكمل به صورة الشفقة ، فهي جوانب متعددة ، وليست كلمة مهمة عامة . ويقول في الرسالة نفسها :
" فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد انتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فيدد المال وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله " .

فجمال الصورة من تفريع التشبيه ، والإحاطة بكل جوانب المشبه به القبيحة من تبديد المال ، وتشريد العيال ، وإفقار الأهل ، وتفريق المال ؛ ولهذا وقعت الصورة موقعا حسنا في نفس عمر المتلقى ، فنفر منها كل ذي لب ، وكل ذي ضمير حي يخشى الله ، ويرجو رضاه .

(١) نظرات في الأدب - أبو الحسن الندوي ص ٣٣ - دار البشير للنشر والتوزيع - عمان الأردن - الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م .

ويقول فى رسالة اخرى : " فكن فيها (الدنيا) يا امير المؤمنين كالمداوى جراحه . يحتذى قليلا ، مخافة ما يكره طويلا " .

ومن التشبيه قول سالم بن عبد الله يصف قصر الدنيا :
" خلق الله الدنيا كما اراد فجعل لها مدة قصيرة كان ما بين اولها وآخرها ساعة من نهار " .

والتشبيه هنا تشبيه تقليدى لم يبلغ تشبيهات الحسن التى أوردنا طرفا منها . والملاحظ أن الحسن أكثر من تشبيهاته فى رسائله بخلاف بقية الفقهاء الذين اقلوا - بك ربما ندرت - التشبيهات فى رسائلهم .

* واما الاستعارة .

فجاءت فى رسائل الفقهاء بصورة متنوعة . وتفنن كل كاتب فى رسم صورته بطريق الاستعارة التى تناسب ما يصبو إليه من معان .
رسم ابن السماك صورة الدنيا والخلص منها أو البقاء فيها بطريق الاستعارة ، فقال مخاطبا هارون الرشيد :
" أما هو فقد خلص من الكدر ، وبقيت انت معلقا بالخطر " ، فجاءت الصورة فى موقعها ، ورضيت نفس هارون ، وصبر على فراق ولده الذى تخلص من الدنيا المليئة بالأكدار . والتفت إلى نفسه الباقية فى الدنيا المعلقة بأخطارها .

ورسم سالم بن عبد الله قوة الحاكم وعدله فى اختبار العمال وتبديل الفاسد منهم ، وذلك بطريق الاستعارة ، فقال :
" ولا يمنعك من نزع عامل أن تقول لا أجد من يكفينى عمله فإني إن كنت تعمل لله وتفزع لله أتاح الله لك أعوانا و أتى بهم " .

فالاستعانة بالاستعارة ، صورت تمكن العامل من عمله ، وصورت قوة الحاكم الذى ينتزع الفاسد من دولته ، كما ينتزع القوى جذع شجرة الفاسد من الأرض الأصلية ويستخدم الحسن البصرى الاستعارة استخداما مزدوجا موازنا بين صورة الحسن والقبح ، فيقول :

" واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر ، وإن أذاقك تعجيل مرارته ، فلنعم ما أعقبك من طيب حلواته ، وحسن عاقبته ، وأن الهوى وإن أذاقك طعم حلواته ، فلبئس ما أعقبك من مرارته ، وسوء عاقبته " .

فأى جمال للمعنى ، وتثبيت له فى الذهن إن لم يرد بهذه الاستعارة البديعة ؟ ولا يكتفى أبو يوسف بإيراد استعارة واحدة فى تصوير ضلال الحاكم إن لم يأخذ بأسباب الهدى ، يقول :
" فإنك إن لاتفعل تنوخر عليك سهولة الهدى ، وتعمى فى عينيك ، وتتعمى رسومه ، ويضيق عليك رحبه ن وتكر منه ماتعرف ، وتعرف منه ماتكر " .

فتتابع الاستعارات أوجت للمخاطب والمتلقى بسوء عاقبة الظالم ، وكشفت تخطيطه فى ظلمات الضلال .

ويرى الإمام مالك فى الاستعارة ما يستطيع به إبلاغ نصحه فيقول :
" وخصم نفسك على مهل ، وأنت تقدر بإذن الله على جر المنفعة إليها .
وصرف الحجة عنها ، قبل أن يتولى الله حسابها ، ثم لاتقدر على صرف المكروه عنها " .

* ويستعين الفقهاء والزهاد بالكناية فى رسم الصور التى يرونها مناسبة لمعانيهم الوعظية ، ويستخدمونها فى مواطن لايحسن فيها التصريح ، بل يكتفى فيها باللمحة والإشارة؛ ليفطن الفطن ، ويفهم المتلقى ما أراد الكاتب .

يقول الإمام أنس بن مالك - رضى الله عنه - مخاطبا عبد الملك فى حق الحجاج الظالم الباغى :
" فخذ على يديه ، واعل عليه " .

ففى هذا القول البليغ ما فيه من الاستنفار ، وإيقاظ الهمم الغافلة ، وقد آتت هذه الكناية ثمارها ، فما كان من عبد الملك إلا أن هدد الحجاج ، فاسترضى الحجاج أنس بن مالك .

ويؤا الى غيلان الدمشقى بين كناياته المتتابعة ، فيرسلها لعمر بن عبد العزيز . فتنزل عليه كالصواعق المتلاحقة ، فينتبه لها ويفكر فى شأنها . يقول غيلان :

" اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلقا باليا ، ورسمًا عافيا ، فياميت بين الاموات لا ترى اشرا فتتبع . ولا تسمع صوتا فتنتفع ، طفء امر السنة ، وظهرت البدعة اخيف العالم فلا يتكلم . ولا يعطى الجاهل فيسأل " .

فهذه الكنايات رسمت صورة العصر السابق لعهد عمر : وأطلعت عمر على فساد الأمة ، وسوء التدبير فيها .

ويوازن سالم بن عبد الله بين حالى الأترياء قبل عهد عمر بن عبد العزيز - قبل الموت وبعده . ولم يجد فى هذه الموازنة ورسم الصور المختلفة غير الكناية : فيرسم بها صوراً تشيب الولدان ، وتنبيه الغافلين ، وتخيف الطامعين . يقول سالم :

" فانهم قد لقوا الله وعالجوا نزع الموت وعانوا هول المطلاع ، وانفقات عيونهم التى كانت لا تنقضى لذتها ، وانشبت بطونهم التى كانوا لا يشبعون فيها . واندقت رقابهم غير متوسدة بعدما تعلم من تظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم ، وصاروا جيفا فى بطون الارض تحت أكامها لو كانوا إلى جنب مساكين تأذوا من ريحهم بعد إنفاق مالا يحصى من الطبب " .

ويصور الحسن البصرى هول الموقف يوم القيامة ، فيستعين فى ذلك بالكنايات التى ترسم صورة كاملة لهذا الفرع ، يقول :

" لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدا ، وأنت مأسور فى حبال الموت ، وموقوف بين يدي الله فى جمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم " .

ويصور أبو يوسف الموقف نفسه مستخدما الكناية ، فيقول :

" فكفى بالحسرة والندامة يومئذ فى ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل ، يوم تزل فيه الأقدام وتتغير فيه الألوان ، ويطول فيه القيام ، ويشتد فيه الحساب " .

ومن الملاحظ أن الفقهاء والزهاد اعتمدوا فى كثير من روافد صورهم التى أشرنا إليها على المخزون الدينى لديهم من قرآن وسنة ، كما التمسوا بعض

صورهم من واقع الأمة السابق والمعاصر لهم ، فجاءت صورهم موثقة في نفوس سامعيها من حلفاء وأمرء ، كما كان لها الأثر - وما زال - في نفوس المتلقين ؛ لصدقها وبعدها عن الخيال الكاذب ، والمنفعة الزائلة ، وللصور في أعقاب المعاني فوائد جليلة ، إذا التمثيل " إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها وإن كان أشقى للصور ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلى الغيبة ، ويبصر الغاية ، ويبرىء العليل ، ويشفى الغليل " (١) .

وهكذا أثر الفقهاء والزهاد فيمن كتبوا إليهم ، وكان لكتاباتهم الأثر الواضح في تغيير كثير من صور الظلم سواء أكانت هذه الكتابات بوحى منهم أم بطلب من المرسل إليهم . ولم يتوان الفقهاء والزهاد في إسداء النصح للخلفاء من خلال تلك الرسائل القيمة ، وعلى الرغم من أن الغرض منها ديني خالص ، إلا أنها اشتملت على جوانب فنية كثيرة مما يؤكد ما ذهبنا إليه من تمكن هؤلاء العلماء من ناصية البيان ، ومعرفتهم بأسرار العربية .

(١) أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني ص ١١٥ ، ١١٦ قرأه وعلق عليه / محمود محمد شاكر - الناشر دار المدني بجدة - الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م .

الفصل الثالث المواظبة الشخصية

المبحث الأول

موضوعات المواعظ

توطدت العلاقة بين الخلفاء والعلماء - خاصة الفقهاء والزهاد - وحظي الوعاظ بمكانة مرموقة لدى الخلفاء ، فكانوا يفسحون لهم في مجالسهم . ويستمعون لما يلقونه من مواعظ ، بل كان الخلفاء في كثير من الأحيان يطلبون هذا الوعظ منهم ، ويصبرون على قسوة مافيه من الكلام .

بدأ خلفاء بني أمية يسلكون هذا المسلك ، وكان عمر بن عبد العزيز رائدهم في هذا الباب ، فكثيرا ما كان يطلب من الفقهاء والزهاد أن يعظوه - خصوصا الحسن البصري - ، وجاء خلفاء بني العباس " فاستنوا بخلفاء بني أمية في استقبال كثير من الوعاظ وكان المنصور خاصة يوسع لهم في مجالسه وكان المهدي مثل أبيه يستدعي هؤلاء الوعاظ ويستمع إليهم . ويروى أن صالح بن عبد الجليل وعظه يوما حتى سالت دموعه ، وكان الرشيد يقتدي به ، فكان يعظه ابن السماك وغيره " (١) .

نشأ الوعظ والقص منذ زمن بعيد واشتهر به جماعة منهم : محمد بن كعب القرظي ، والحسن البصري ، ومالك بن دينار ، وغيرهم ، وكان الوعاظ يلمون بمجالس الخلفاء والولاة فيعظونهم ويبيكونهم ، وتمتلىء كتب الادب بكثير من أسماء الوعاظ ومواعظهم . (٢) .

واتسم الوعاظ بسمات تليق بما هم فيه من زهد وورع ، فتركوا الدنيا وزخرفها ، وأقبلوا على الآخرة يعملون لها وينهيون للقاء ربهم ، فغلب على هيناتهم الزهد والتقشف ، وأحب العلماء فيهم هذه الصفات ، وأشادوا بها ، قال ابن الجوزي :

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي - د / شوقي ضيف ص ١٢٦ - دار المعارف بمصر - الطبعة الحادية عشرة ١٩٩٠ م .

(٢) انظر : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٧٦ ، ٧٧ .

" لكل قوم زى ، وكما لا يحسن الغناء إلا من الجوارى الخرد ، ولا الغزل إلا من عاشق ، ولا النوح إلا من شاكل ، ولا ذكر الاوطان إلا من غريب ، فخذلك لا يعمل الوعظ إلا من متقشف متزهّد ، متورّع ، من وراء مدرعة صوف ، ونظافة جسم ، وتقليل قوت ، اشتغالا عن البدن بفضائل النفس ... فاما من خرج بطينا فاخر الثياب مداخل للسلطين ، فكيف تستجيب له القلوب ؟ ... وينبغي للواعظ ان يعتزل العوام ليكون لكلامه وقع هيبه ، لا على وجه التصنع بالانقطاع " (١) .

وكان الفقهاء يعرفون قدر الموعظة ، فيدخلون على الخلفاء والأمراء ، فيعظونهم حتى يبتكونهم . والإمام مالك رائد الفقهاء فى هذا الفن ، بل كان يحث العلماء على إرشاد الخلفاء والأمراء ، يقول : " حق على كل مسلم او رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل الى ذى سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر . حتى يتبين دخول العالم عن غيره ، فإذا كان فهو الفضل الذى ما بعده فضل " (٢) .

وسلك الشافعى المسلك نفسه فى وعظ الخلفاء والولاة ، أما أحمد وأبو حنيفة فلم يسلكا هذا المسلك ؛ بسبب عدم الدخول عليهم والتردد على مجالسهم . كما وعظ الأوزاعى أبا جعفر المنصور وعظا بليغا بين له فيه أسباب النجاة ، ونهاه عن الوقوع فى المخالفات الشرعية .

*** وتدور موضوعات الموعظ مجملّة حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومفصلة نراها تدعو إلى حسن الخلق والمعاشرة ، والتحذير من الدنيا الفانية ، والعدل فى الرعية وقضاء حوائجهم والتواضع لهم ، ومراقبة الله - عز وجل - فى كل الأمور ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، ومحاسبة النفس قبل أن لاينفع الندم ، والتحذير من بطانة سوء - ويضيف الإمام مالك والشافعى موضوعا جديدا هو رعاية المهاجرين والأتصار : لأنهم عصب الإسلام ، وسبب جلوس الخلفاء على الكراسى .

(١) القصاص والمذكرين ص ٢٤ .
(٢) مالك حياته ، عصره - أبوزهرة ص ٦٢ .

طلب عمر بن عبد العزيز النصيحة من محمد الباقر (ت ١١٣ هـ) ، فقال محمد الباقر :

" أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدا ، وأوسطهم أخا ، وكبيرهم أبا ؛ فارحم ولدك ، وصل أخاك ، وبر أباك ؛ وإذا صنعت معروفا فربه " (١) .

وقال محمد بن كعب القرظي (٢) لعمر بن عبد العزيز ، ينصحه بمصاحبة الأخيار ، ويوصيه بالإخلاص في الحب والمودة ، ويحثه على زيادة المعروف ورعايته :

" إن فيك عقلا وإن فيك جهلا ، فداو بعض ما فيك ببعض ، وآخ من الإخوان من كان ذا معلاة (المعلاة : العلو والشرف) في الدين ونبيه في الحق ، ولا تواخ منهم من تكون منزلتك عنده على قدر حاجته إليك ، فإذا قضى حاجته منك ذهب ما بينك وبينه . وإذا غرست غراسا من المعروف فلا تبقي أن تحسن تربيتة " (٣) .

وكان بعض الوعاظ يشترط لوعظه شروطا على الخليفة ، أهمها السمع والطاعة ، والعمل بما يسمع ؛ حتى لا يقع في الإثم والعصيان ، حدث الأوزاعي (٤) قال :

" دخلت على المنصور ، فقال لي ما الذي بطأ بك عنى ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذي تريد من ؟ قال : الاقتباس منك ، قلت : انظر ما تقول ، فإن (مكحولا) حدثني عن عطية بن بشير أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :

(١) جمهرة خطب العرب ١٥٧ / ٢ .

(٢) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي ، كان أبوه من سبي قريظة . عالم ، ورع ، ثقة . كثير الحديث كان يحدث في مسجده فسقط عليه وعلى أصحابه فقتلهم سنة ١١٧ هـ . وقد أكثر من مواظبه لعمر بن عبد العزيز البيان والتبيين - ٤٠٨ / ٢ - هامش رقم (٤) .

(٣) عيون الأخيار ٧ / ٣ .

(٤) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام ، ولم يكن بها أعلم منه . ولد ببعلبك سنة ٨٨ هـ ، وتوفي سنة ١٥٧ ببيروت . والأوزاعي : نسبة إلى أوزاع ، وهي بطن من ذى الكلاع من اليمن ، وقيل : بطن من همدان ، وقيل الأوزاع : قرية بدمشق ، ولم يكن عبد الرحمن منهم ، وإنما نزل فيهم ، فنسب إليهم ، وهو من سبي اليمن . جمهرة خطب العرب ٤٩ / ٣ هامش رقم (١) .

" من بلغه عن الله نصيحة في دينيه ، فهي رحمة من الله سبقت إليه فإن قبلها من الله بشكر ، وإلا كانت حجة من الله عليه ، ليزداد عليه غضبا ، وإن بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا ، وإن سخط فله السخط ، ومن كرهه فقد كرهه الله لأن الله الحق المبين " فلا تجهلن ، قال : وكيف أجهل ؟ قال : . . . تسمع ولا تعمل بما تسمع ، قال الأوزاعي : فسل على الربيع السيف ، وقال : تقول لامير المؤمنين هذا ؟ فانتهره المنصور وقال : أمسك " (١) .

وبعد هذا الشرط القاسي الجريء ، أخذ الأوزاعي في وعظ المنصور ، وتذكيره بأمر الخلافة وما ينبغي فيها من عدل وإحسان للرعية مستدلا لمواعظه بالقرآن وبأحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومرغبا له في العدل والتخلي عن زينة الدنيا ، وكان مما قاله له :
" واعلم أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ، ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقاب قوس أحدكم من الجنة أو قذرة (ريش السهم) خير له من الدنيا بأسرها " إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ، ولو بقي الملك لمن قبلك لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لأذاهم ، فكيف من يتقمصه واعلم أن السلطان أربعة : أمير يظلف نفسه وعماله ، فذلك له أجر المجاهد في سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتبع ورتع عماله ، فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله . وأمير يظلف (يكف) نفسه ، ويرتفع عماله ، فذلك الذي باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتفع ويظلف عماله ، فذلك شر الأكياس " (٢) .
وبأخذ الأوزاعي خليفة المسلمين بهذا النصح القاسي ، فيحذره من أمانة الخلافة ، ويذكره برفض النبي الكريم طلب جده العباس لها ؛ لضعفه وشفقته عليه من الجور ، ثم يختم موعظته بتخيير الخليفة بالقبول أو الرفض مع بيان عاقبة كل اختيار - وهو يذكرنا بختام رسالة الإمام مالك ، وبختام رسالة أبي يوسف - يقول : " هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن رددتها فنفسك بخست ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، قال : بلى ، نقبلها ونشكرك عليها ، وبالله نستعين " (٣) .

(١) جمهرة خطب العرب ٣ / ٤٩ .
(٢) (٣) المصدر نفسه ٣ / ٥١ ، ٥٠ .

ويشترط الإمام الشافعي على الرشيد شروطا كثيرة حتى يقبل وعظه ، فقد سأل الرشيد الشافعي الموعدة ، فقال له الشافعي :
" أن تخلع رداء الكبر عن عاتقك ، وتضع تاج الهيبة عن رأسك ، وتنزع قميص التجبر عن جسدك ، وتفتش نفسك ، وتنتشر سرك ، وتلقى جلباب الحياء عن وجهك ، مستكينا بين يدي ربك ، وأكون واعظا لك عن الحق . وتكون مستمعا بحسن القبول : فينفعنني الله بما أقول ، وينفعك بما تسمع " (١) .

وكما اشترط الشافعي شروطا اشترط الرشيد شرطا ، وهو الإيجاز ، فقبل الشافعي وشمر ذراعية وحشد عقله ، واستحضر بلاغته ، فحذره من الاغترار بالدنيا ، وأمره بإصلاح سره وعلاقته ، والتمسك بالكتاب والسنة ، ثم حثه في وصيته على الاهتمام بالمهاجرين والأتصار ، وبين له سبب ذلك . وأنهم أصل الدين ، وسبب التمكن في الخلافة ، قال الشافعي :
" عليك بالمهاجرين والأتصار (والذين تبوءوا الدار والإيمان) ، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسينهم ، وأتهم من مال الله الذي آتاك . ولا تكررهم على إمساك عن حق ، ولا على خوض في باطل ، فإنهم الذين مكنوا لك البلاد ، واستخلصوا لك العباد ، ونوروا الظلمة ، وكشفوا عنك الغمة ، ومكنوا لك في الأرض ، وعرفوك السياسة وقلدوك الرئاسة ، فنهضت بثقلها بعد ضعف ، وقويت عليها بعد فشل ، كل ذلك يرجوك من كان من أمثالهم لعفتهم طمع الزيادة لهم ، فلا تطع الخاصة تقربا إليهم بظلم العامة ، ولا تطع العامة تقربا إليهم بظلم الخاصة لتستديم السلامة " (٢) .

ثم يوجز الشافعي نصيحته في ختام بليغ ، يحذره فيه من الجور في الحكم ، فيقول : وكن لله كما تحب أن يكون لك ولأوليائك من العامة من السمع والطاعة ؛ فإنه ما ولي أحد على عشرة من المسلمين فلم يحطهم بنصيحة إلا جاء يوم القيامة ويده مغلولة إلى عنقه ، وأنت أعرف بنفسك " (٣) .

وقد آتت الموعدة ثمارها ؛ فبكى الرشيد — وقد كان في خلالها يبكي ولا يسمع له صوت — فلما بلغ نهايتها علا نحيبه وبكى جلساؤه . وسبق الإمام مالك الشافعي في هذا الموضوع ، حين وصى المهدي فقال :

(١) (٢) (٣) حلية الأولياء ٩ / ٨٩ وما بعدها - نقل عن : هارون الرشيد ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

"أوصيك بتقوى الله وحده والعطف على أهل بلد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجيرانه ، فإنه بلغنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "المدينة مهاجرة ، وبها قبري ، وبها مبعثي وأهلها جيرانى ، وحقيق على أمتي حفظي في جيرانى فمن حفظهم كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة" (١) .

وواضح مما قدمنا من هذه الموازنة أن الشافعى كان أبلغ في حثه على العناية بالمهاجرين والاتصار ، حيث لم يكتف بإيراد الحديث الشريف ، وإنما فصل القول في أسباب حب المهاجرين والاتصار ، فأبكى الرشيد عندما وصل لهذا الفصل من الموعظة .

ومن الزهاد الواعظين ، عمرو بن عبيد ، وكانت له مكانة في قلوب خلفاء بنى العباس ، وخصوصا المنصور - فكان يفسح له في مجلسه ، ويطلب نصيحته ووعظه ، وكان عمرو بن عبيد يغلظ له القول ، والمنصور يقبل ذلك .

دخل عمرو بن عبيد على المنصور ، فطلب منه الموعظة ، فحذره من الدنيا والاعتزاز بزخرفها في إيجاز بليغ ، فقال : " يا أمير المؤمنين ، إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتتر نفسك منها ببعضها وإن هذا الذى فى يدك ، لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك . فاحذر ليلة تمخض عن يوم ليلية بعده . فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع : يا عمرو ، غممت أمير المؤمنين فقال عمرو :

إن هذا صحبتك عشرين سنة ، لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا . وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ، قال أبو جعفر : فما أصنع ، خاتمتى فى يدك ، فتعال وأصحابك فاكفنى ، قال عمرو : ادعنا بذلك ، تسخ أنفسنا بعونك ، ببابك ألف مظلمة ، اردد منها شيئا نعلم أنك صادق " (٢) .

(١) مالك - عبد الحليم الجندى ص ٢٥٤ .
(٢) هو أبو عثمان عمرو بن عبيد ، مولى لبنى العديوية من بنى تيم ولد سنة ثمانين ، وتوفى سنة ١٤٤ هـ من كبار أئمة المعتزلة .
(٣) جمهرة خطب العرب ٣ / ٤٥ .

ونستطيع أن نفيد من هذه الموعظة أموراً عديدة ، منها : جرأة عمرو بن عبيد ، وقسوة كلامه ، وعدم الاهتمام ببطانة السوء ، حيث لم يابه للربيع ، وإنما وجه كلامه للخليفة ووجهه لحاجبه المنافق الذي لم ينصحه مرة واحدة منذ عشرين سنة - مدة عمله - ولم يعمل بكتاب الله ولا بسنة رسوله .

كما نفيد منها عرض المشورة على عمرو الذي رفض المناصب ، ووجه الخليفة للعدل ، وإنهاء المظالم ببابه ؛ فذلك عنوان عدله وحسن سيرته .

تلك هي أهم الموضوعات التي دارت حولها المواعظ ، وقد كان الخلفاء يطلبون كثيراً منها من الفقهاء والزهاد ، كما كان الفقهاء والزهاد يتطوعون بإيراد بعضها من غير طلب لهذا ؛ إيماناً منهم بدور العلماء ، وأنهم مبلغون عن رب العالمين ، وهم أمناء الأمة في الأرض وتاطقون عن أفراد الأمة .

رحم الله الفقهاء والزهاد جزاء ما قدموا من نصيح وموعظة ؛ ابتغاء مرضات الله ، وطلباً لثوابه ومغفرته ! .

المبحث الثانى الجوانب الفنية فى المواعظ

١ - اللغة والأسلوب .

لم تختلف لغة المواعظ كثيرا عن لغة الرسائل ، فجاءت الألفاظ عربية فصيحة ، ووقعت من المعانى موقعها ، فهى إما زجر عن خطأ أو أمر بمعروف ، فكثرت الألفاظ التى تعبر عن المعروف ووسائله ، كما كثرت الألفاظ التى تنهى عن المنكر ووسائله ، مثل : (الحق ، الباطل ، الحرام ، الحلال ، المفسد ، العدل ، الظلم ، الجنة ، النار ، الخير ، الشر ، أداء الفرائض ، اجتناب المحارم ، المعروف ، المنكر ، البر ، الرحمة) .

ويلاحظ فى المواعظ - غرابة بعض الألفاظ ، وحاجتها إلى التفسير ، كما فى موعظة الأوزاعى للمنصور ، فجاء فيها قوله : فتيلها ، نقيرها ، رهقا ، قذة ، حصيف ، الغرة ، يظلف) وهى تحتاج إلى تفسيرها وربطها بمعناها التى سبقت له . ولكن معظم الألفاظ واضحة سهلة مع فصاحتها ووقوعها موقعا حسنا من النظم الأسلوبى .

* أما الأسلوب ، فجاء قويا مترابطا ، وزاوج الوعظ فيه بين الخبر والإنشاء وإن غلب عليه الإنشاء من أمر ونهى ونداء - وهذا الأسلوب يتفق وموضوع الوعظ الذى يحتاج لمثل هذه الأساليب الإنشائية التى ينشئها المتحدث إنشاء غير أنه يحتاج إلى أسلوب الخبر ؛ لسرد حادثة أو سوق دليل أو خبر يدعم قوله .

ظهر نوع من الأساليب لم يظهر فى الرسائل . وهو أسلوب الحوار ، حيث كانت الموعظة تسير بأسلوب الحوار بين الواعظ والموعوظ - وهذا الأسلوب لا يتفق مع الرسائل وإنما يتفق والمواعظ ؛ لما فيه من المواجهة بين الواعظ والموعوظ ، وهنا تظهر براعة الواعظ فى ارتجال الإجابة التى

يجيب بها عن سؤال السائل (الخليفة) ، وتتفاوت عقول الوعاظ في الحجة والإقناع ، وما يتركه الواعظ من أثر في نفوس سامعيه ، وكان معظمهم يترك السامعين في حبيب وبكاء من هول ما يسمعون ، ومن بلاغة ما يسوقه اليهم من حجج وبراهين .

حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم (١) .
الأعرج ، وعنده ابن شهاب - ثم دار الحوار بين سليمان وأبي حازم :

" قال سليمان : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : في المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذلك ؟ قال : لاتأخذ الأشياء إلا من حلها ، ولاتضعها إلا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلده . قال عظمى أبا حازم . قال : أعلم أن الأمر لم يصبر إليك إلا يموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك .

قال : يا أبا حازم ، أشر على . قال : إنما أنت سوق ، فما نفق (راج) عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر أيهما شئت .

قال : مالك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإتباتك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتني فتننتي ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي ما أخافك عليه . قال فارفع حاجتك قال : رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها قبلت ، وما منعتني منها رضيت " (٢) .

ولم يكتف بعض الزهاد بجودة الحوار والبراعة في المنطق ، بل كان يعتمد إلى حسن الحجاج ، وسوق الشواهد الحية من خلال حوار : فيزداد الموعوظ خوفا ووجلا ، ويقتررب قلبه من الإجابة للدعوة فلا يملك دموعه ، ولا يستطيع لها ردا ، بعث هارون الرشيد إلى ابن السماك ليرسم موعظته ، ودار بينهما حوار أجاب فيه ابن السماك على كلام هارون حتى أبكاه ، فلما بكى هارون دعا بماء واستسقى ، فأتى بقدح فيه ماء ، وهنا وجد ابن السماك فرصته ليحاجج هارون حجاجا منطقيا واقعيا ، قال ابن السماك :

(١) هو سلمة بن دينار ، أبو حازم المدني الأعرج ، عابد صالح ، زاهد . كان ثقة كثير الحديث . توفي سنة ١٤١ هـ في خلافة المنصور - انظر : البيان والتبيين ١ / ٣٣٩ هامش رقم (٢) .
(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤١٨ .

" يا امير المؤمنين ، أكلّمك قبل أن تشرب هذا الماء ، قال ما أحببت ، قال : يا امير المؤمنين ، لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفتديها بالدنيا وما فيها حتى تصل اليك ؟ قال : نعم . قال : فاشرب يا باريك الله لك فلما فرغ من شربه قال : يا امير المؤمنين ، أرايت لو منعت إخراج هذه الشربة عنك إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفتدي ذلك بالدنيا وما فيها ؟ قال : نعم قال : يا امير المؤمنين ، فما تصنع بشيء وشربة ماء خير منه ؟ فيكى هارون واشتد بكأوه . فقال يحيى بن خالد : يا ابن سماك ، قد آذيت أمير المؤمنين فقال له : وانت يا يحيى فلا يفرنك رفاهية العيش وليئه " (١) .

فهارون لم يشتد بكأوه إلا بعد هذه المحاجة القوية التي التقطها ابن السماك من واقع الحال ، واستطاع أن يوظف شربة الماء في تزهد هارون في الدنيا وما فيها ، كما ساعد على ذلك إخلاص ابن السماك وصدق حديثه وفعاله ، وقد قال ابن الجوزي : " ينبغي للواعظ أن يكون فقيها في دين الله ، عالما بالعربية واللغة ، فصيح اللسان ومدار ذلك كله على تقوى الله - عز وجل وأنه بقدر تقواه يقع كلامه في القلوب . وقال بعض السلف : إن الموعظة إذا خرجت من قلب الصادق وقعت في القلب " (٢) .

وتميزت مواعظ الفقهاء والزهاد للحكام بميزات كثيرة منها : " فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى ، وإثارة الشعور ، وإذعان النفس ، فكانت تبهر سامعها بما أشاعوا فيها من الإيمان الشديد والتقوى وهذه الوصايا والمواعظ للحكام انطبعت بالطابع الديني الخالص حتى وإن كانت تعالج الكثير من الامور الدنيوية فإن معالجتها هذه جاءت من الباعث الديني في حث الحاكم ودعوته إلى العناية بالرعية والرفق بهم ، وتبدير أمور حياتهم المختلفة " (٣) .

(١) الذهب المسبوق في وعظ الملوك ص ٢٢٠ .

(٢) التناص والمذكرين - ابن الجوزي ص ٢٢ .

(٣) الوصايا في الأدب العربي القديم . د / سهام الفريخ ص ١٦٠ ، ١٦١ - مكتبة المعلا - الكويت - الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م .

* المحسنات البديعية .

لم يقصد الوعاظ إلى المحسنات قصدا ؛ ولهذا قلت فى مواضعهم ، وما جاء منها إنما جاء عفوا من غير كد ذهن ، ولا إرهاق خاطر ؛ فوقع موقعا حسنا من القول الذى سيق فىه ؛ وذلك لانشغال الوعاظ بما هم فيه من قول مرتجل فى معظم الأحيان - أو الرد على أسئلة لم يسمعوها من ذي قبل حتى يعدوا لها الأجوبة .

ووقع بعض المحسنات متمثلة فى الطباق ، والمقابلة ، وتوافق نهاية الجمل المسجوعة ، مثل قول محمد بن كعب القرظى :
" خرجوا من الدنيا مرملين ، لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة ، ولا لما كرهوا جنة ، ... افتح الأبواب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، ورد الظالم " (١) .

فالطباق بين (أحبوا ، كرهوا) والسجع (جنة ، عدة ، الأبواب والحجاب) وقع موقعا حسنا ، وزادا المعنى جمالا والموعظة قيمة وفنا .
ووقع السجع فى كلام ابن السماك مع اتزان الجمل ، واتفاقها طولا وقصرا فزاد المعنى رونقا وبها ، وذلك فى قوله للرشيد :
" فاحذر المقام بين يدى الله - عز وجل - والوقوف بين الجنة والنار حين يؤخذ بالكظم ، وتزل القدم ، ويقع الندم ، فلا توبة تقبل ، ولا عثرة تقال ، ولا تحيل فداء بمال " (٢) .

وخلت كثير من المواضع خلوا تاما من المحسنات البديعية ، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من انشغال الواعظ بمعانيه وأثرها أكثر من انشغاله بتتقيق الألفاظ وتزيين جملة ، كما أن الارتجال - فى كثير منها - كان له الأثر الكبير فى ذلك ، بخلاف الرسالة التى يراجعها كاتبها ، بل يكتبها لتقرأ وتبقى دليلا على بلاغته وحسن معرفته بالعربية وأسرارها .

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٢٢ .

(٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٩٢ .

ولا يتعارض، هذا الحكم مع ماذهب إليه الدكتور / شوقي ضيف - رحمه الله من أن كثيرا من وعاظ العصر الأموي بلغوا من الحذق " أن جعلوا المواعظ كلها سجعا خالصا كأسرة الرقاشيين ، وهي أسرة فارسية كانت تحترف القصص في هذا العصر كما كانت تحترف السجع " (١) .

فكثير من الوعاظ لم يكتثروا من استخدام السجع - خصوصا في مواعظ الخلفاء التي ندرسها - وربما كانت مواعظهم وخطبهم العامة تحوى كثيرا منها ، ومع ذلك فإنهم اتقنوا وجوه البلاغة ، وعرفوا أسرار العربية ، ولعل مما يدل على ذلك أن " أقدم النصوص التي تتصل بماهية البلاغة تضاف إلى واحد منهم هو عمرو بن عبيد ، فقد روى الجاحظ أنه قيل له : ما البلاغة ؟ فقال السائل : ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصرك موافق رشذك وعواقب غيك ، قال السائل :

ليس هذا أريد . قال عمرو : فكأنك إنما تريد تخير اللفظ في حسن إفهام . قال : نعم ، قال : إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتخفيف المنونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعنى في قلوب المريدين ، بالالفاظ الحسنة في الأذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة ، على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستحققت على الله جزيل الثواب " (٢) .

٢ - التكرار ، والاستشهاد بالقرآن والسنة

قلت ظاهرة التكرار (تكرار الجمل والكلمات المفردة) في المواعظ بصورة ملحوظة ، حيث خلت كثير من المواعظ منها تماما ، فلم نجد نقرا (اعلم) أو (يا أمير المؤمنين) بكثرة كما نقرأها في الرسائل ، فالإمام الشافعي ذكر جملة (يا أمير المؤمنين) مرة واحدة في بداية موعظته الطويلة ، ولم يذكرها الإمام مالك في مواعظه ، ومما يلفت النظر تكرار هذه الجملة (يا أمير المؤمنين) في مواعظ الأوزاعي الطويلة حيث كررها أربع مرات ، وكرر كلمة (اعلم) ثلاث مرات فيها . وذكر ابن أسماك قول (أمير المؤمنين) مرة واحدة في بداية إحدى مواعظه .

(١) المرجع نفسه ص ٩٤ .

(٢) البداية والنهاية ١٠ / ٢١٧ - نقلا عن هارون الرشيد ص ٧٩ .

ومن الملاحظ تصدير الموعظة بقول الواعظ " أوصيك " خصوصا إذا بدا الخليفة كلامه بقوله :

" أوصنى " كما كان كثير من الفقهاء والزهاد يدخلون فى مواعظهم مباشرة من غير مقدمات ، ومن دون التفات للموعوظ ولمن حوله ، وكان الذى يعنيه هو إفراغ ما فى جعبتهم من نصائح حتى يردوا الخليفة عن غيه ، ويرسموا له طريق الرشاد .

أما عن الاستشهاد بالقرآن والسنة ، فوقع كثيرا فى كلام الزهاد والفقهاء ، فلم تخل كثير من المواعظ من آية من كتاب الله ، أو حديث من أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ومما يلفت النظر إكثار الأوزاعي فى وصيته الطويلة للمنصور من الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . وهذا يذكرنا برسالة الإمام مالك سابقا ، وبلغنا إلى اتفاق الفقهاء فى المنهج - كتابة ووعظا - فهم أقدر الناس على حفظ القرآن والأحاديث فتفيض على سنتهم وأقلامهم فى أثناء الوعظ والتوجيه .

وقد خلت بعض المواعظ من القرآن والسنة ، واكتفى أصحابها بإيراد المعانى الدينية ، أو الاسترشاد بمعانى الأحاديث ، أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - خصوصا إذا كانت الموعظة قصيرة جدا - مثل قول سفيان الثوري للمنصور وقد قال له :

" عظنى أبا عبد الله . قال : وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت ؟ " (١) .
ومثل وصية محمد الباقر لعمر بن عبد العزيز قال :
" أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدا وأوسطهم أخا وكبيرهم أبا ؛ فارحم ولدك ، وصل أخاك ، وبر أباك ؛ وإذا صنعت معروفا فربه " (٢) .

(١) العقد الفريد ١ / ٨١ .
(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ١٥٧ .

وكان بعض الوعاظ والزهاد يكثر من إيراد الشواهد القرآنية ، ويبالغ فيها ، كما فعل عمرو بن مبيد عندما طلب منه المنصور موعظته ، فقال :
" أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم
والفجر وليال عشر حتى أتى على آخرها فبكى المنصور بكاء شديدا ثم قال
زدنى ... فأخذ فى وعظه " (١) .

وقد تكون الموعظة موجزة وتحمل آيات القرآن كموعظة ابن السماك التى طلبها منه هارون وأمره بالإيجاز فقال له :
" عطنى وأوجز ، فقال ابن السماك : كفى بالقرآن واعظا يا أمير المؤمنين
قال الله - عز وجل - : " ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس
يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون " فهذا وعيد لمن طفف فى الكيل
فما ظنك بمن أخذه كله " (٢) .

ولابن السماك نفسه موعظة مع هارون خلت من القرآن والسنة ، مما يجعلنا
نوقن بأن الموقف كان يملئ الموعظة على الواعظ فهو مرتبط بالحال
والحادث ، فكل حادث حديث كما يقال .

٣ - الوجدة الموضوعية .

ليس للموعظة أسس للبناء الفنى كما هو الحال فى الرسالة أو الخطبة ،
وإنما هى كلام يدور حول النصح والإرشاد يلقيه الفقيه أو الزاهد فى وجه
الخليفة ومن يحضر مجلسه بمناسبة وبغير مناسبة ، كان يحج الخليفة ، أو
يرسل للواعظ طلبا لسماع النصح والتوجيه ، أو يتطوع الزاهد لمعرفته
بواجب العلماء فيبلغ الخليفة بما يراه صوابا له ولرعيته - كما فعل صالح بن
عبد الجليل مع المهدي - .

(١) الذهب المسبوك ص ١٩١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٩ .

وقد دارت المواعظ حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إجمالاً ، وتحققت الوحدة الموضوعية في ذلك تحققاً كاملاً ؛ وأما في تفصيل هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فنلاحظ تحقق الوحدة الموضوعية في كثير من المواعظ ، حيث يعمد الواعظ (الفقيه أو الزاهد) إلى لون واحد من ألوان الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر وقصر موعظته عليه ، كما تتشعب الموعظة في بعض الأحيان فلا يستطيع الواعظ جمعها تحت عنوان واحد فنراها مجموعة من الأوامر والنواهي التي لا يربط بينها إلا جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فمن المواعظ التي تحققت فيها الوحدة مع التفصيل ، وصية الإمام مالك للمهدي عندما قال له : أوصني ، فقال له الإمام مالك :
" أوصيك بتقوى الله وحده ، والعطف على أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيرانه ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (المدينة مهما جرى ، وبها قبري ، وبها مبعثي ، وأهلها جيرانني ، وحقيق على أمتي حفظي في جيرانني ، فمن حفظهم كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة) " (١) .

فالموعظة تركزت حول الإحسان إلى أهل المدينة من أهل وجيران لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن مهاجرين وأنصار ، وقد قدم الإمام مالك لذلك بالحث على التقوى وهو عنصر مهم من عناصر السمع والطاعة والعمل بحديث الرسول الكريم ، كما استشهد بالحديث الذي يدعم وصيته ، فجاءت الوصية موضوعاً واحداً ؛ ولهذا كان لها الأثر في نفس الخليفة الموعوظ ، فذكرت المصادر أنه على " أثر هذه الوصية أخرج المهدي عطاء كثيراً ، وطاف بنفسه على دور المدينة ، ولما أراد النزوح (السفر) دخل عليه مالك ، فقال له الخليفة : إني محتفظ بوصيتك التي حدثتني بها ، ولنن سلمت ما غبت عنهم " (٢) .

ومن ذلك أيضاً ، وصية محمد بن كعب القرظي لعمر بن عبد العزيز ، وتركزت حول التنفير لمن عرض الدنيا الزائل ، والعمل ليوم الحساب بالعدل ، قال محمد بن كعب :

(١) مالك - أبو زهرة ص ٦٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٣ .

”إنما الدنيا سوق من الأسواق، فمنها خرج الناس بما ينفعهم، وما يضرهم، وكم من قوم قد غرهم مثل الذي أصبحنا فيه حتى أتاهم الموت فاستوعبهم، فخرجوا من الدنيا مرملين (فقراء)، لم يأخذوا لما أحيوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا الجنة، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم، فانظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت، فابتغ بين يديك حتى تخرج إليه، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت، فابتغ به البذل، حيث يجوز البذل، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على غيرك، ترجو جوازها عنك. يا أمير المؤمنين، افتح اللابواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم“ (١).

ومن المواعظ التي تحققت فيها الوحدة الموضوعية تحقفا كاملا، موعظة الأوزاعي للمنصور، فهي مع طولها - تركزت حول عنصر واحد ألا وهو: أمانة الخلافة، وظهرت براعة الأوزاعي الفنية في تشعيب هذا العنصر وتفريعه والدوران حول أسسه وسبله، فجاءت الوصية (الموعظة) قطعة فنية واحدة، لا يحس المتلقى فيها بخل أو خروج عن الموضوع الأصلي.

بدأ الأوزاعي موعظته بالحديث عن أمانة الخلافة وصعوبتها وما يتبعها من محاسبه شديدة، مستدلا لذلك بالأحاديث النبوية، قال: ”إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به، والله سائلك عن صغيرها، وفتيلها ونقيرها، ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال:

(ما من راع يبيت غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة) فحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظرا، ولما استطاع من عوراتهم ساترا، وبالقسط فيما بينهم قائما، لا يتخوف محسنهم منه رهقا، ولا مسينهم عدوانا، فقد كانت بيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جريدة يستاك بها، ويرد عنه المنافقين، فاتاه جبريل فقال: (يا محمد، ما هذه الجريدة بيدك! اذفها لا تملأ قلوبهم رعبا) فكيف من سفك دماءهم، وشقق أبشارهم، وأنهب أموالهم؟ يا أمير المؤمنين، إن المرفورله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدش أعرابيا لم يتعمده فهبط جبريل فقال:

(يا محمد، إن الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون أمته)“ (٢).

(١) جمهرة خطب العرب ٢/٤٢٢.

(٢) جمهرة خطب العرب ٣/٥٠٠، ٤٩.

وبعد هذه المقدمة الإنذارية التوضيحية: دخل الأوزاعي في طريق آخر من طرق الإنذار والتخويف من خيانة أمانة الخلافة، فزهد الخليفة في الملك، وعرض عل سمعه وعقله صورا من صور العذاب يوم القيامة التي لا تكون إلا للظالم، قال: "واعلم أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة، ولا ثمرة من ثمارها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : (لقاب قوس أحدكم من الجنة، أوقدة خير له من الدنيا بأسرها) ،

إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها، ولو بقى لمن قبلك لم يصل إليك يا أمير المؤمنين، ولو أن توبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لأذاهم، فكيف من يتقمصه؟ ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الأرض لأجنه، فكيف بمن يتجرعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف من سلك فيها، ويرد فضلها على عاتقه، وقد قال عمر بن الخطاب:

(لا يقوم أمر الناس إلا حصيف الوقدة، بعيد الغيرة لا يطلع الناس منه على عورة، ولا يحنق في الحق على جرة، ولا تأخذه في الله لومة لائم) (١) .

ثم أخذ في بيان أنواع السلاطين والأمراء، وما يكونون عليه في ألوان الحكم؛ ليختار الموعوظ أحسنها، فقال: " وأعلم أن السلطان أربعة: أمير يظلف نفسه وعماله، فذلك له أجر المجاهد في سبيل الله، وصلاته سبعون ألف صلاة، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف، وأمير يرتع ويرتع عماله، فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله، فذلك الذي باع آخرته بدنيا غيره، وأمير يرتع ويظلف عماله، فذلك شر الأكياس" (٢) .

وختم الأوزاعي موعظته بما بدأ به كلامه من التخويف من خيانة أمر هذه الأمة: والحث على العدل وعدم الاتكال على قرابته من الرسول الأعظم، قال: "واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم، عرض السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنه وأشفقن منه، وقد جاء عن جدك في تفسير قول الله عز وجل:-:

(١) المصدر السابق ٣/ ٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٥١، ٥٠ .

(لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) ان الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك، وقال: فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدي؟ فأعيدك بالله أن يخيل إليك أن قرأيتك برسول الله - صلى الله عليه وسلم - تنفع مع المخالفة لأمره، فقد قال - رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:
(يا صفية عمة محمد، ويا فاطمة بنت محمد، استوهيا أنفسكما من الله، إني لا أغني عنكما من الله شيئا، وكان جدك الأكبر سال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إماره، فقال: (أى عمر، نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحييها) نظر لعمة، وشفق عليه أن يلى فيجور عن سنته جناح بعوضة، فلا يستطيع له نفعاً، ولا عنه دفعاً" (١).

فالموعظة - على طولها تحققت فيها الوحدة الموضوعية، وجاءت متماسكة مترابطة الفقرات فى تسلسل يوحى بالوحدة فى الموضوع.

وأما عن المواعظ التى تشعبت فيها الموضوعات، فيمثلها موعظة الإمام الشافعى التى ألقاها بين يدي هارون الرشيد، فهى وإن دارت حول التقوى والعدل إلا أنها أبحرت فى أمواج متلاحقة من وجوه التقوى وأسباب العدل؛ ولهذا نعدّها من المواعظ التى لم تتحقق فيها الوحدة الموضوعية بالمنظور السابق الذى أشرنا إليه.

بدأ الإمام الشافعى موعظته بالحث عن التحلى ببعض الفضائل. كشكر النعم، وتقوى الله فى السر والعلانية، والسماع لصوت الحق، وطاعة الله، فقال: "أعلم أن الله جل ثناؤه - امتحنك بالنعم، وابتلاك بالشكر، وفضل النعمة أحسن لتستغرق بقليلها كثيراً من شكرك، فكأن الله تعالى شاكراً، ولأنه ذاكر، تستحق منه المزيد، واتق الله فى السر والعلانية تستكمل الطاعة، واسمع لقائل الحق وإن كان دونك تشرف عند الله، وتزداد فى عين رعبتك، وأعلم أن الله سبحانه وتعالى - يفتش سرّك، فبان وجده بخلاف علايتك شغلك بهم الدنيا، وفنق لك ما يزلق عليك، واستغنى الله والله غنى حميد، وإن وجده موافقاً لـ نيتك أحببك وصرف هم الدنيا عن قلبك، وكفاك مؤونة نظرك لغيرك، وترك بك نظرك لنفسك، وكان المقوى لسياستك .

(١) المصدر السابق ١/٣ .

ولن تطاع إلا بطاعتك الله تعالى، فتكن له طائعا تكتسب بذلك السلامة في العاجل، وحسن المنقلب في الأجل: (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (١).

وانتقل الشافعي بعد ذلك إلى مجموعة أخرى من الأوامر والنواهي، فحذره الله - عز وجل - وأمره بالعمل بالكتاب والسنة، وإقتفاء أثر الخلفاء الراشدين في توزيع الخراج على الرعية بالعدل وعدم التلبيس عليهم في ذلك، قال: "واحذر الله حذر عبد علم مكان عدوه، وغاب عنه وليه، فتيقظ خوف السري، لا تأمن من مكر الله لتواتر نعمه عليك، فإن ذلك مفسدة لك، وذهاب لدينك، وعليك بكتاب الله الذي لا يضل المسترشد به، ولن تهلك ما تمسكت به فاعتصم بالله تجده تجاهك، وعليك بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكن على طريقة الذين هداهم الله فيهداهم اقتده، وما نصب الخلفاء المهديون في الخراج والأرضيين والسواد والمسكن والديارات، فكن لهم تبعا وبه عاملا راضيا مسلما، واحذر التلبيس فيه فإنك مسنول عن رعيته" (٢).

وانتقل الشافعي في ختام الموعظة إلى وجه آخر من وجوه العدل، وهو الاهتمام بالمهاجرين والأنصار، فأخذ يحثه على الإحساس إليهم، مبينا فضلهم في الدين والدنيا والآخرة، فقال: "وعليك بالمهاجرين والأنصار (والذين تبوءوا الدار والإيمان) فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم، وآتهم من مال الله الذي آتاك، ولا تكرهمهم على إمساك عن حق، ولا على خوص في باطل؛ فإنهم الذين مكنوا لك البلاد، واستخلصوا لك العباد، ونوروا الظلمة وكشفوا عنك الغمة، ومكنوا لك في الأرض، وعرفوك السياسة، وقلدوك الرياسة، فنهضت بثقلها بعد ضعف، وقويت عليها بعد فشل، كل ذلك يرجوك من كان من أمثالهم لعفنتهم طمع. الزيادة لهم، فلا تطع الخاصة تقربا إليهم بظلم العامة، وتطع العامة تقربا إليهم بظلم الخاصة لتستديم السلامة" (٣).

(١)، (٢) هارون الرشيد ص ١٩٧، ١٩٨.

(٣) هارون الرشيد ص ١٩٨.

وجاء الختام النهائي حاثا على عدل الرعية فقال " وكن لله كما تحب أن يكون لك ولأوليائك من العامة السمع والطاعة فإنه ما ولى أحد على عشرة من المسلمين فلم يحطهم بنصيحة إلا جاء يوم القيامة ويده مغلولة إلى عنقه . وانت اعرف بنفسك " (١) .

فالموعظة - كما هو واضح - تدور حول العدل والتقوى والعمل الصالح ، إلا أنها متشعبة الموضوعات ، بخلاف ما ذكرنا من نماذج تحققت فيها الوحدة الموضوعية ؛ وربما كان ذلك بسبب تدفق النصائح على لسان الشافعي ، فاكتفى الشافعي بالإشارة إلى رءوس الموضوعات المهمة التي تهم الحاكم والمحكوم ، فانفرط منه عقد الموضوع ، وتداخلت عليه السبل . ولكنها - على أية حال - موعظة جامعة تدل على عقل واع وصدق في النية ، وإخلاص في التوجيه ؛ مما كان سببا في بكاء هارون بعد سماعها ! .

٤ - الصورة والخيال .

لم يقصد الفقهاء والزهاد إلى رسم الصور قصدا ، بل كان قصدهم التذكير بالحال والمآل ؛ فجاءت مواظبتهم حقائق ، تصف الحال ، وتحذر من الانزلاق في مهاوى الرذيلة من ظلم وتضييع ، وابتعاد عن طريق الجادة ؛ وعلى الرغم من ذلك فلم تخل مواظبتهم من الاستعانة بالصورة والخيال في تثبيت الحقائق ، أو تقريب البعيد إلى ذهن الموعوظ والمتلقى . وصف أبو حازم الأعرج حقيقة أمر الخلافة من غير الاتكاء على الخيال ، فقال : اعلم أن الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك ، ووصف قدرة الله فقال : رفعت حاجتي إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها قبلت ، وما منعتني منها رضيت . (٢) .

ووصف ابن السماك موقف هارون بين يد الله تعالى فقال : اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقف غدا بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنة أو نار (٣) .

(١) هارون الرشيد ص ١٩٨ .

(٢) جمهرة خطيب العرب ٢ / ٤١٨ .

(٣) المصدر نفسه ٣ / ١٠٠ .

ووصف الأوزاعي شدة العذاب فقال :
ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لأذاهم ، فكيف من
يتقمصه ؟ ولو أن ذنوباً من صديد أهل النار صب على ماء الأرض لأجسه ،
فكيف بمن يتجرعه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب ،
فكيف من سلك فيها ، ويرد فضلها على عاتقه ؟ (١) .
أما عن الاستعانة بالصورة والخيال فقد استعانوا بالكنائية والاستعارة
والتشبيه ، وجاءت الكناية بكثرة في صورهم التي رسموها ؛ لأنها تناسب
مواقفهم من تهويل أو تصغير ، كما جاء خيالهم معتدلاً غير جانح ، فاكتملت
صورة الحقائق ، واتزنت المواقف ، وقربت إلى الأذهان ، فبكى معظم الخلفاء
ومجالسهم في نهاية المواقف للتأثر بما قيل وبما رسم من صور .

* استخدم أبو حازم الأعرج الكناية في رسم الصورة التي تهون من شأن
العبد ، وترفع من قدر الخالق ، فقال مخاطباً هارون : "إن أدينتني فتننتي ، وإن
أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي ما أخافك عليه" .
فجمال الموقف نابع من جمال الصورة ، واكتمال أدواتها المتمثلة في الكناية
اللطيفة التي توحى بفقر العبد - حاكماً كان أو محكوماً - .

واستخدم الإمام مالك الكناية في حث هارون على الاقتداء بالخلفاء الراشدين
في التواضع ، فوازن بين حال الرشيد وحال عمر بن الخطاب رضي الله عنه
فقال :
"بلغني أن عمر بن الخطاب كان في فضله وقدمه ينفخ لهم (للعريّة) على
الرمادة النار تحت القدر حتى يخرج الدخان من لحيته ، وقد رضي الناس منك
بدون هذا" .

فجمال الصورة تبدو في التكنية عن التواضع برسم هذا المشهد المثير
حقاً ، وما كان الكلام يؤتى ثماره بالتصريح ، وإنما كمننت بلاغته في هذا الرسم
الجيد - صورة الإمام الملتحي الذي يجلس مانلاً تحت القدر ينفخ النار حتى
ينضج الطعام عيته غير مبال بالدخان الذي يغبر تلك اللحية الذكية ! .

(١) المصدر نفسه ٣ / ٥١ .

وزهد محمد بن كعب القرظي عمر بن عبد العزيز في الدنيا بما فيها من ملك،
فاستخدم الكناية في رسم ما يرجوه لموعظه، فقال:
"ولا تذهبن الى سلعة قد بارت على غيرك، ترجو جوازها عنك".

وبرع محمد الباقر في استخدام الكناية وتوظيفها في حث عمر بن عبد العزيز
على العدل في الرعية، والرحمة بجميع فئاتها، فقال:
"أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدا، وأوسطهم أخا، وكبيرهم أبا، فأرحم
ولئك، وصل أخاك، وبر أباك، وإذا صنعت معروفا فربه (أي: أدمه)".

وأبكى ابن السماك هارون الرشيد: لبراعته في الرسم بالكناية، وجعلها منطلق
البلاغة التي تصف هول القيامة والحساب، في قوله:
"فاحذر المقام بين يدي الله - عز وجل - والوقوف بين الجنة والنار، حين يؤخذ
بالكظم، وتزل القدم، ويقع الندم، فلا توبة ثقيل، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء: بمال".

** واستخدم الفقهاء والزهاد الاستعارة في رسم صورهم . وإيصال
مواظمتهم للخلفاء ، فاثرت فيهم ، وأنت ثمارها في كثير من مواقفهم الجادة .
فمن الاستعارات البليغة ، قول الشافعي يصف الخلافة :
" فنهضت بثقلها بعد ضعف".

حيث شبه الخلافة بالشئ الثقيل الذي لا يستطيع الرجل القوي القيام به ، ثم حذف
المشبه به وأبقى لها صفة من صفاتها وهي الثقل ، وجعل المهاجرين والأتباع
سببا في قيام هارون بهذا الحمل الثقيل ؛ وما كان هارون ليتلفت الى هذا الجانب
لولا تلك الاستعارة البديعة التي رسم بها الشافعي صورته الرائعة.

وطعن الأوزاعي نقيمة الاستعارة ، فرسم بها صورة الأمراء في التقسيم
الجيد الذي عرضهم عليه ، ووازن بين الحقيقة والخيال في بيان ما يكون
عليه الأمراء من ظلم وعدل ، فقال :
" وأمير رتع ورتع ماله ، فذاك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير
يظلف نفسه ويرتع ماله ، فذاك الذي باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع
ويظلف عماله ، فذاك شر الأكياس " .
فلولا توظيف الاستعارة لما تبين شره الأمراء في اجتياح أموال الرعية من
غير حساب كما ترتع البهيمة في الزروع من غير رادع ولا عقل.

*** ووظف بعض الفقهاء والزهاد التشبيه في رسم الصورة وبيان حقيقة ما يصبون إليه من ترغيب في خير أو ترهيب من شر ، فاستخدمه أبو حازم الأعرج في رسم صورة ذهاب الملك بالسرعة التي جاء بها ، فقال لسليمان بن عبد الملك :
" أعلم أن الأمر لم يصبر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك " .

فالجزء الأول من الوعظة خلا من التصوير ، واستعان به أبو حازم في إكمال رسم الصورة التي ينسل بها الملك من بين يدي المالك ، كما استعان بادوات التشبيه في كونه صورة تمثيلية مركبة من الحال والواقع .

واستعان أبو حازم مرة أخرى بالتشبيه البليغ ، فقال :
" إنما أنت سوق ، فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت " .

فجمال التشبيه بدا في اختيار مفرداته ، فالمشبه هو سليمان نفسه ، والمشبه به سوق بخسارتها وربحها ، ووجه الشبه : بضاعة السوق بنوعيتها (الخير والشر) وعلى المشبه (سليمان) اختيار ما يناسبه من بضاعة الدنيا .

واتكأ الإمام الشافعي على التشبيه في رسم صورة المتقي الخائف ، فعرض بين يدي هارون تلك الصورة التي يريجوه أن يكون فيها ، فقال له حاثاً إياه على خوف الله :

" واحذر الله حذر عبد علم مكان عدوه ، وغاب عنه وليه ، فتيقظ خوف الردي " .

فهذه صورة رائعة ، رسمت عبداً خاف من شيء ، وقد علم مكان العدو ، وغاب عنه أولي ، فبات يقظاً كي لا يقع في الردي .

وجمال التشبيه بدا في توابع المشبه به (صفاته) التي أكملت صورة الخوف وأحاطت بجوانبه ، وكشفت عن أسبابه ؛ فكان الوعظ بالتشبيه سبباً من أسباب تأثر هارون ونحيبه .

وهكذا استعان الفقهاء والزهاد بأنواع التصوير المختلفة ، كما نراهم " يستلهمون في كثير من جوانبها أي الذكر الحكيم كما يستلهمونها في أكثر

معانيهم ، وقد جعلهم حديثهم عن الثواب والعقاب والجنة والنار والطاعة
والعصيان والحياة والموت والإيمان والكفر أن يقيموا كلامهم على الطباق
والمقابلة" (١) .

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٩١ .

المصادر والمراجع

- ١ - إحياء علوم الدين ، للإمام أبي حامد محمد الغزالي (الجزء الأول) .
تحقيق / أبي حفص سيد إبراهيم - دار الحديث - القاهرة
١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م .
- ٢ - أخلاق العلماء ، لأبي بكر الحسين بن عبد الله الأجرى - دار الكاتب
العربي (ب . ت) .
- ٣ - أدب الاختلاف في الإسلام - د/ طه جابر فياض العلواني - الدار
العالمية للكتاب الإسلامي - الرياض - الطبعة الثالثة
١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م .
- ٤ - الأدب الكبير ، لابن المقفع - تحقيق الأستاذ / أحمد زكي باشا ، دار
ابن حزم - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م .
- ٥ - أسرار البلاغة ، للإمام القاهر الجرجاني - تحقيق / محمود محمد
شاكر - مطبعة المدنى بالقاهرة ودار المدنى بجدة - الطبعة الثالثة
١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م .
- ٦ - الأسلوب - أحمد الشايب - مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة -
الطبعة الثامنة ١٩٨٨ م .
- ٧ - أعلام الموقعين عن رب العالمين ، تأليف أبي عبد الله محمد بن أبي
بكر المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ شرح / محمد
عبد السلام - إبراهيم - (الجزء الثالث) - دار الكتب العلمية بيروت -
لبنان ١٤١٧ هـ = ١٩٩٦ م .
- ٨ - الأمالي ، لأبي علي القالي - مراجعة لجنة إحياء التراث العربي في
دار الأفاق الجديدة بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م .

- ٩ - الإمام الزهري عالم الحجاز والشام - محمد محمد حسن شراب - دار القلم - دمشق - الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م .
- ١٠ - الإمام سفيان بن سعيد الثوري سيد الحفاظ - د / عصام محمد الحاج علي - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م .
- ١١ - الأوائل ، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م .
- ١٢ - البحث العلمي عند المسلمين بين ميسرات الماضي ومعوقات الحاضر د / محمد عبد الحليم مرسى - دار عالم الكتب - الرياض الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م .
- ١٣ - البيان والتبيين ، تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق وشرح / حسن السندوي - قدم له : مصطفى القصاص - دار إحياء العلوم - بيروت لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م .
- ١٤ - جمهرة خطب العرب - أحمد زكي صفوت - المكتبة العلمية - بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م .
- ١٥ - جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهية - أحمد زكي صفوت - المكتبة العلمية بيروت لبنان .
- ١٦ - جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين و الموحدين (٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م - ٦٤٠ هـ ١٢٤٢ م) - د / محمد بن إبراهيم بن صالح أبا الخيل - دار إصداء المجتمع للنشر والتوزيع - السعودية - الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨ م .

١٧ - الحسن البصري إمام أهل البصرة - الشيخ / كامل محمد عويضة -
دار الكتب العلمية بيروت لبنان - الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ = ١٩٩٥ م .

١٨ - حلية طالب العلم ، بقلم : بكر عبد الله أبوزيد - دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع - السعودية - الطبعة الأولى
١٤١١ هـ = ١٩٩١ م .

١٩ - ابن حنبل (حياته وعصره وآراؤه وفقهه) . الإمام محمد أبوزهرة
- دار الفكر العربي - القاهرة ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م .

٢٠ - أبوحنيفة (حياته وعصره وآراؤه وفقهه) الإمام / محمد أبوزهرة
- دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٩٧ م .

٢١ - أبوحنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام - عبد الحليم الجندی -
المكتبة النموذجية بالقاهرة ١٩٧٠ م .

٢٢ - الخراج ، للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم .

٢٣ - الخليفة عمر بن عبد العزيز والشعر - د / عبد الحميد المعيني -
مطبوعات نادي أبها الأدبي - السعودية - الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .

٢٤ - الذهب المسبوك في وعظ الملوك ، تأليف أبي عبد الله محمد بن أبي
نصر الحميدى المتوفى (٤٨٨ هـ) - حققه / أبو عبد الرحمن بن
عقيل الظاهري ، د / عبد الحليم عويس - عالم الكتب - الرياض -
الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م .

٢٥ - رسائل الإصلاح - الشيخ / محمد الخضر حسين - المطبعة
التعاونية بدمشق . ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م .

- ٢٦ - رسائل الخليل بقلم عدنان مردم بك - مؤسسة الرسالة بيروت -
الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .
- ٢٧ - السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري - د /
نعمان محمد أمين طه - دار التوفيقية للطباعة والأزهر - مصر -
الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م .
- ٢٨ - الشافعي (حياته وعصره وأرواه وفقهه) الإمام محمد أبو زهرة -
دار الفكر العربي - القاهرة ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ م .
- ٢٩ - العفو والاعتذار ، لأبي الحسن محمد بن عمران العبدى المعروف
بالرقام البصرى صاحبه ابن دريد - تحقيق د / عبد القدوس أبو
صالح - دار البشير - عمان الأردن الطبعة الثانية
١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م .
- ٣٠ - العقد الفريد ، لابن عبدربه الأندلسى ١ : ٣ تحقيق د / أحمد
يسرى العزباوى - دار الإمام على للطباعة والنشر - القاهرة -
الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٢٢ م .
- ٣١ - العلماء الذين لم يتجاوزوا سن الأشد - على بن محمد العمران -
دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض - الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م .
- ٣٢ - عيون الأخبار - تأليف أبى محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة
الدينورى - تحقيق د . محمد مفيد قميحة - دار الكتب العلمية -
بيروت لبنان ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م .
- ٣٣ - الفتوى والفتاوى أمانة ونزاهة وتقوى - الشيخ / خضر العبيدى -
دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت لبنان - الطبعة
الأولى ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م .

- ٣٤ - فضل علم السلف على الخلف ، للحافظ أبي الفرج زين الدين عبد الرحمن بن الشيخ أحمد بن رجب الحنبلي - تحقيق / بشير محمد عيون - مكتبة دار البيان - دمشق - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م .
- ٣٥ - الفن ومذاهبه في النثر العربي - د / شوقي ضيف - دار المعارف بمصر - الطبعة الحادية عشرة ١٩٩٠ م .
- ٣٦ - القصاص والمذكرين ، للحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق / محمد السعيد بسيوني - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .
- ٣٧ - مالك بن أنس إمام دار الهجرة - عبد الحليم الجندى - دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م .
- ٣٨ - مالك (حياته وعصره آراؤه الفقهية) - الإمام محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي - الطبعة الثانية ١٩٥٢ م .
- ٣٩ - المدخل إلى الثقافة الإسلامية - د / محمد رشاد سالم - دار القلم الكويت - الطبعة السادسة ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م .
- ٤٠ - مسألة الاحتجاج بالشافعي فيما أسند إليه والرد على الطاعنين بعظم جهلهم عليه ، الخطيب البغدادي تحقيق : خليل إبراهيم ملا خاطر - شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م .
- ٤١ - المكتبات في الإسلام - نشأتها وتطورها ومصادر ما - د / محمد ماهر حمادة - مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م .

- ٤٢ - مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق ذ / عبد الله بن عبد المحسن التركي - هجر للطباعة والنشر - القاهرة - الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨ م .
- ٤٣ - النشر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي - د / مي يوسف خليف - دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة .
- ٤٤ - النشر الفني في القرن الرابع الهجري - د / زكي مبارك - دار الجيل - بيروت ١٩٧٥ م .
- ٤٥ - نظام الحسبة في العراق حتى عصر المأمون (نشأته وتطوره) - رشاد عباس معتوق الناشر : دار تهامة بجدة - الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م .
- ٤٦ - نظرات في الأدب - أبو الحسن الندوي - دار البشير للنشر والتوزيع - عمان الأردن - الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م .
- ٤٧ - هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا - د / شوقي أبو خليل دار الفكر بدمشق - الطبعة الرابعة ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م .
- ٤٨ - الوصايا في الأدب العربي القديم - د / سهام الفريح - مكتبة المعلا الكويت - الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م .
- ٤٩ - وصية الشيخ الفقيه الحافظ أبي الوليد الباجي الأندلس - تحقيق / عبد اللطيف بن محمد الجيلاني - مكتبة أضواء السلف - الرياض - الطبعة الأولى ١٤٩١ هـ = ١٩٩٨ م .

الموضوعات

الصفحة

الموضوع

٣ مقدمة :
٥ الفصل الأول : مع العلماء والحكام
٦ المبحث الأول : في العلم والعلماء
١٩ المبحث الثاني : مواقف الفقهاء والزهاد من الخلفاء
٣٦ الفصل الثاني : رسائل الفقهاء والزهاد للخلفاء الأمويين والعباسيين
٣٧ المبحث الأول : موضوعات رسائل الفقهاء والزهاد
٦٩ المبحث الثاني : الجوانب الفنية في رسائل الفقهاء والزهاد
٨٥ الفصل الثالث : المواعظ الشفهية
٨٦ المبحث الأول : موضوعات المواعظ
٩٣ المبحث الثاني : الجوانب الفنية في المواعظ
١١٠ المصادر والمراجع :
١١٦ فهرست الموضوعات :

رقم الإيداع

م ٣٠٠٦ / ١٦٠٩٣